

ملاح في الأدب المقاوم

- فلسطين أنموذجاً -



أ. د. حسين جمعة

# ملاحم في الأدب المقاوم

- فلسطين أنموذجاً -

دراسة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٩



## الإهداء

إلى الشهداء أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر،  
وإلى الشرفاء الأحرار وزينة الحياة، وبنات المستقبل،  
وإلى الأدباء الذين ارتقوا في الكتابة الحرة  
المقاومة .



## مقدمة

الأدب شعراً ونثراً ابن الذات المبدعة شعوراً ورؤية وخيالاً، فهو إلماعة ذهنية مضمخة بالانفعال الذي يرف على الشجن الدافئ... ويتربع الأدب المقاوم على عرش هذا الأدب في كل زمان ومكان، لما يتصف به من الاندماج في كينونة الجماعة والأرض، ولاسيما عندما تطوف اللحظة الزمانية في تمجيد القيم الأصيلة... التي يتواضع عليها المجتمع أو تتعهدا الرسالات السماوية بالحفاوة توقيفاً وتوفيقاً كما هو حال المفهوم الإسلامي للشهادة أو النصر بوصفهما إحدى الحسنين...

فإذا كان الأدب عامة فناً جميلاً فإن الأدب المقاوم يصطبغ بهذا الجمال في الوقت الذي يحمل رسالته ووظيفته في طبيعته الفنية.

لهذا فإن الأديب ينثر درره الشعرية أو النثرية نضحات وجدانية ورؤى فكرية تتغنى بها الشفاه؛ وترتلها أوتار القلوب؛ لتستقر في القلوب والذواكر ملامح متألقة من الانتماء إلى الوطن / المحل -- الأرض / وإلى الهوية (العروبة) الجامعة للبعدين الوطني والقومي... لهذا كان العنوان (ملامح في الأدب المقاوم).

فملامح الأدب المقاوم ترتقي في معراج القيم إلى مصافي التعبير عن كل ما هو نبيل وسام لتحقيق كرامة الإنسان وحرية وطمأنينته، ما يعني أنها استكناه لأسرار الحياة الخيرة وخلودها في كل زمان ومكان لأنها تنبثق من مفهوم العزة والحرية والاستقلال والسيادة.

وفي ضوء ذلك فإن الناس قديماً وحديثاً شغفوا بأدب المقاومة وظهرت تجلياته بأنماط شتى ومضامين عدة، ومازالت عبقرية المبدعين تبتكر أنواعاً ومضامين جديدة تسير ارتقاء الحياة والحضارة... فهم يتوقون إلى هذا النمط الذي يؤكد التزامهم الثابت بقضايا مجتمعاتهم وهمومها وطنياً وقومياً وإنسانياً. وحينما كانت قضية فلسطين مرتكز النضال الوطني والقومي؛ فقد خصصنا الكتاب بها، لأنه أعجز من أن يحيط بالأدب المقاوم إبان التحرر الوطني لأقطار الوطن العربي...

وبهذا فإن الأدب المقاوم - على الرغم من أنه ركز على المقاومة الفلسطينية المعاصرة - يحمل في ذاته ملامح العام والخاص؛ فضلاً عن أن طبيعته تتألق بروح الجذب والإثارة؛ ويتصف مضمونه بروح الجوهر المشرق والمثير للدهشة والمتعة، لأنه يتصف بالثورة والتمرد على كل أشكال القهر والظلم والاستبداد والاحتلال و....

وعليه فإن كتاب (ملامح في الأدب المقاوم) يتسع في بعض صفحاته ليخوض مجابهة شرسة مع تلك الأشكال أياً كان أربابها في الداخل وفي الخارج... فإذا تجلّى أدب المقاومة حضوراً جمالياً؛ مقاوماً لكل ما يؤدي الإنسان والجماعة من الداخل فإن هذا الكتاب يؤكد حضوره حين يغدو فاعلاً وقوياً في الحديث عن مجابهة الاحتلال الصهيوني لفلسطين الأبية، وقد سام أبناءها أشد أنواع القهر والاستبداد.

وهذا يثبت أن الأدباء والكتاب والمثقفين يقعون في الدرجة الأولى من المجتمع في تحمل مسؤولياتهم لتصليب الإرادة وبتث الوعي بملامح المقاومة وتوثيقها لتحفيز المجتمع على التمسك بقيمه وثوابته الأخلاقية والوطنية والقومية. ومن ثم فإن كل نص يبدعونه يغدو جزءاً أصيلاً في الحفاظ على الكرامة والسيادة.

وهنا يغدو الدم المسفوح من الأحرار والشرفاء مثار إبداع للحرية والكرامة، ومثار رسالة للأدباء والكتاب تعنيهم قبل غيرهم لأنهم يمثلون



ضمير الوطن والأمة وعقلها وإرادتها وصورتها الروحية الرفيعة، ويؤصلون قيم الانتماء والأخلاق في مجتمعاتهم...، وإنما تبدلت تلك القيم والمبادئ باختلاف الزمان والمكان والثقافة والإدراك .

ومن ثم فعلاقة الأدباء والكتاب بالنكبات والأزمات التي تواجه وجودهم وحياتهم وهويتهم ومقدساتهم وثقافتهم وتراثهم ليست علاقة طارئة أو جديدة؛ وإنما هي علاقة متجذرة في التاريخ والحياة؛ وهي تنطوي على رسالة خلقية وجمالية ضد كل أشكال القبح والشر؛ وبخاصة إذا كانت في مواجهة المحتل الغاصب والطامع في خيرات هذه الأمة قديماً وحديثاً؛ أي إن رسالة الأدباء والكتاب تتجاوز الفردية الذاتية، والجزئيات التفصيلية التي يعتمد عليها السياسي ومصالحه الضيقة والمحدودة وإن وقع بعض الكتاب والمثقفين من الصف الأول في حالة التردد أو الصمت - إذا كانت الأزمة خطيرة وعاصفة كما حدث في غزة أخيراً - أو سقوط عدد منهم في الانحراف والإعراض والتبعية و... وهذا وذلك لا يغير رسالة الأديب الملتزم بقضايا مجتمعه أو وطنه وأمته؛ وإنما يزيده صلابة في الدفاع عنها؛ مهما تعرض للعزلة أو النفي أو السجن، أو التعذيب أو القهر والإذلال، أو القتل - ولما كان ذلك كذلك فإن هذا الكتاب توزع على فصلين اثنين عنوان الأول (مواجهة الأدباء للأزمات والنكبات) وألمَّ بمواقف الأدباء من النكبة والنكسة والأزمة؛ وقد تجلّت لهم طبيعتها ووظيفتها وفق رؤيتهم وتجربتهم التي تتسم بالتجدد والانبعاث، إذ وقفوا ضد كل أشكال الفساد والإفساد، وضد كل أساليب الظلم والقهر والاحتلال و... أياً كان حجمها وزمانها ومكانها، داخلياً وخارجياً .

لهذا اقترنت ديمومة فعلهم بالكلمة والموقف، وانبرى كل واحد منهم يحدّد ملامحها الكبرى في صميم الحركة المتجددة للأدب المقاوم قديماً وحديثاً. أي إن ملامح الأدب المقاوم تظهر دفعاً لكل أنواع الخراب والتخريب، لتزهر الأرض يانعة بخضرتها، ولتغتسل بالطهر والنقاء...

وليست غزّة إلاّ الأنموذج البطولي الحي لديمومة الإبداع النضالي الخلاق؛ وبذل النفس فداءً في سبيل الوطن والأرض؛ أيّ إنها الشكل الحاضر لتجدد البطولة العربية الحديثة في الوقت الذي كشفت شناعة الوجه الصهيوني الذي تفضن بمجازره الوحشية، ما جعل الأدباء يتسامون على جراحتهم وعذاباتهم وهم يصورون المأساة الكبرى لأهلنا في غزّة، لكنهم أطلقوا صرخة مدوية نحو النصر، وهو قادم لا محالة، مهما طالّت عذابات الخيبة والمرارة من هذا العدو العنصري الحاقد. فالأدباء واجهوا أزمات الوطن والأمة بكثير من الصلابة والوعي؛ إذ تفهّموا تمام الفهم موضوعة الصراع العربي - الصهيوني، بوصفه صراع وجود لا صراع حدود، وراحوا يُصلّبون المواقف، ويثبتون الوعي بالذات النضالية ...

فالأدباء حملوا رسالة وطنية وقومية، وتحدثوا بصوت الأمة الحرّة المشبعة بالعزّة والسؤدد ...

ومن هنا كان الفصل الثاني (تجليات الأدب المقاوم) وهو الذي عرض لمفهوم الهوية العربية، والانتماء إلى الأرض/ الوطن في حضور أسطوري يتغذى من المحبة والمشاعر الفياضة في الحنين إليها وتوق إلى الرجوع إلى ترابها ... ولذا صارت المنايا والخيام مرتكزاً في إنتاج فن أدبي يشدد على ملامح الوطن وذكرياته التي حلت مع الأدباء أينما حلّوا ... ومن ثم انثنى كل أديب يحدثنا عن تجليات الهزيمة والانكسار، وتجاوزهما، والتغلب عليهما وعلى مرارة الخيبات منهما ومن الحكام البائسين؛ وطفق يزرع في نفوسنا تجربة المقاومة الأسطورية المستندة إلى هدف واضح يمتح معينه من وحدة الموقف والمصير، ما يشي بأن الأديب أعلن انحيازه المطلق إلى جانب المقاومة بملء حريته، وقدرته على الاختيار ساخراً من أولئك الذين أعمتهم المصالح الضيقة، وضائق لديهم حدود الرؤية. لذلك اختار الأديب المقاوم الانضمام إلى تجليات الشهادة بوصفها طريق الحرية والسيادة والعدالة ... وهي الناموس الخالد على الدوام .

وحيث كان لهذا الكتاب مثل هذه الرؤية، فإنه ليس الوحيد في بابهِ ولكنهُ يضاف إلى تلك التي انجذبت إلى تأريخ المواقف البطولية، ويتجذر في صميم الرسالة الخلقية التي ينقلها إلى الأجيال؛ فاستحضر عدداً غير قليل من الأشعار المستحدثة في الدوريات وغيرها، وقدم نماذج شعرية مقاومة تستند إلى رؤية ثورية للصراع العربي - الصهيوني، لكي تنعم الأرض العربية بالحرية وبزوغ فجر الساطع للعدالة والبناء والارتقاء والنهوض و...

ومن ثم كان المنهج يستبطن النصوص الأدبية المقاومة طبيعة ووظيفة، وفق منهج استقرائي أسلوبى تحليلي، مستظهراً إحياءاتها القريبة والبعيدة ...

وحيثما توجه - غالباً - إلى النص الإبداعي الشعري؛ كان يدرك أن حجم الشعر يجسد حالة نوعية في الأدب المقاوم؛ في الوقت الذي بلغ فيه حجماً عظيماً، ما فرض على الباحث أسلوب الاختيار لنماذج شعرية محددة، لأن الإحاطة بالشعر المقاوم أصعب من أن تحتويه كتب شتى ... وهو السبب نفسه الذي جعل الباحث يبتعد عن تناول بقية الأجناس الأدبية؛ وإن أشار غير مرة إلى أنماط منها؛ لكنها إشارات على سبيل التذكير، وليس على سبيل الاحتفاء بها، أو الإحاطة بشواهدها .

وأخيراً أقول: حسبي أنني حاولت الاستجابة لصوت الواجب النضالي إذ ناداني إلى ساحة الأدب المقاوم رغبة في تقرير مواقف الكرامة والبطولة خدمة للأجيال وللوطن والأمة، وحباً بهذا النمط من الأدب الصادق والرفيع .

والله من وراء القصد

دمشق في ٢٣/٤/٢٠٠٩م

حسين جمعة



# الفصل الأول

---

## مواجهة الأدباء للأزمات والنكبات

### حدود وأبعاد

- ١ - مفاهيم النكبة والنكسة والأزمة
- ٢ - أنواع الأزمات والنكبات
- ٣ - طبيعة المواجهة ووظيفتها عند الأدباء والكتاب
  - ١ - طبيعة المواجهة
  - ٢ - وظيفة المواجهة
- ٤ - غرّة أنموذجاً



## مواجهة الأدباء للأزمات والنكبات

### حدود وأبعاد:

يحاول الإبداع أن يُجمل الحياة أو يصنع حياة أحلى من الخيال، وإلا فيمكنه أن يصورها بجلوها ومرها وفق مفهوم الأدب الواقعي... بيد أن النص الإبداعي يمتد في بعدي الزمان والمكان متجاوزاً المصادفة والمحاكاة والمطابقة ليتشكل فناً موازياً للواقع الذاتي والموضوعي... أي إن الأنساق الخارجية تدخل إلى الذات المبدعة الداخلية لتتصهر بقوة الاستجابة للانفعال والحساسية المرهفة والرؤى الكامنة في الذهن... ولتصبح تجربة جمالية إبداعية ذات قيمة مميزة لصاحبها؛ وليصبح النص الإبداعي نتاجاً لدوافعٍ عدّة ذاتية وموضوعية بما فيها الأدب الملتزم برسالة ما خلقية أو إيمانية، وطنية أو قومية أو إنسانية؛ ولاسيما أن عالم اليوم - خاصة - متعطش للمادة والمكاسب واللعب على المصالح ...

وفي صميم ذلك يشتمل النص أسراراً شتى تحتاج إلى تفكيكها وتحليلها في إطار المرجعيات التي تعتمدها ثقافياً واجتماعياً وسياسياً وفنياً... فالنص مخزون لرؤية ثقافية فكرية، وتعبير عن شعور عالٍ بالدوافع الخارجية والموضوعية... وهذا كله يضع الكتاب والأدباء أمام رسالتهم... فإذا اختار إنسان ما، أو دولة ما الدم والقتل والتدمير والتهجير، ورجع كل منهما إلى عصور وحشية وبهيمية، وشاعت

مفاهيم الغابة كان على الكتاب والأدباء أن يرسموا صورة منقّرة لذلك كله. فالمبدعون - أياً كان اختصاصهم وانتمائهم - يمكنهم أن يسموا بالروح الإنسانية إلى الطهر والنقاء والإخاء... ويمكنهم أن ينتشلوا القاتل المجرم الأحمق من جنونه ومن انتكاسته إلى بهيميته الأولى. أما إذا فرض القتل على الإنسان فلا بد له من أن يدافع عن وجوده وحياته، ويصبح المرء ملزماً حينذاك بالمجابهة والنضال، لأن الدم الشريف النقي يقاوم الدم القبيح الملوّث بالشر والفساد والإفساد، ما يثبت أن المقاومة ليست شهوة في العنف والقتل والاعتداء على الآخر وإنما هي دفع الأذى والقبح والشر والفساد والاحتلال عن الذات الإنسانية ومقارعتة بكل السبل المتاحة؛ ومن ثم في مواجهة منظمة واعية لكل أشكال القهر والظلم والاستعمار والغزو بكل صورته المباشرة وغير المباشرة،<sup>(١)</sup> فهي رفض للذل والاستسلام والخنوع؛ بالكلمة والموقف والنفوس... ما يؤكد أن الأدب المقاوم يعد في طبيعة أنماط المقاومة العليا بوصفه باحثاً عن الحرية والكرامة والجمال والسعادة... وبوصفه جزءاً لا يتجزأ من ثقافة المقاومة عند الشعوب وهي ثقافة تؤكد صفة الروح الإنسانية الخلقية لمفهوم المقاومة بعكس ما يشاع اليوم من الخلط بين مفهومي المقاومة والإرهاب، على الرغم من أن مصطلح (الإرهاب) قد تغير اليوم عما كان عليه في الماضي<sup>(٢)</sup>..

وهذا ما سينهض به الفصل بدءاً من تجلية المفاهيم، ومروراً بإيضاح أنواع الأزمات والنكبات وطبيعة مواجهتها وانتهاء بتقديمنا غزوة أنموذجاً لطبيعة المواجهة ووظيفتها.

---

(١) انظر كتابنا المقاومة: قراءة في التاريخ والواقع والآفاق (٥١ - ٥٧).

(٢) انظر كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ١٤١ - ١٤٦.



## ١ - مفاهيم: النكبة والنكسة والأزمة

لعل القارئ المنصف للأحداث التي وقعت في تاريخنا العربي الحديث يثبت لديه - من دون أدنى شك - أن الصهيونية كانت نبع الإرهاب الذي أصَلَّته في الثقافة والحياة... حين كانت تستبطن فكرة قتل الأغيار؛ وأرض الميعاد، وتحريض اليهود للسيطرة على أرض فلسطين في صميم تنمية روح العنصرية البغيضة في نفوسهم وقد استغلت الانتداب البريطاني على فلسطين لتنفيذ مخططاتها؛ سواء بوعد بلفور (١٩١٧/١١/٢م) أم بتسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين... وحينما أكدت الصهيونية ذاتها بأنها ظاهرة عنصرية شوفونية؛ إرهابية عصابية، معادية للبشرية وللقيم الخلقية النبيلة؛ أكدت في الوقت نفسه أنها تسعى جاهدة إلى تبديل المفاهيم والمصطلحات وحرفها عن دلالتها الحقيقية؛ كما عملت على إلصاق تهمة الإرهاب بالمقاومين والشرفاء العرب... فالصهيونية مشروع استيطاني استتصالي يزور التاريخ والواقع والمفاهيم - أياً كانت طبيعتها - إذا ما تعارضت مع أهدافه...

ولهذا كان علينا إبراز بعض المفاهيم التي ولدت في قلب الصراع العربي - الصهيوني، وإجلاء موقف الأدباء منها سواء كان ذلك في ظل الانتداب البريطاني، ولاسيما إبان ثورة (١٩٣٦م)، أم بعد نشوء دولة الكيان. وقد شارك الأدباء في كل الأحداث الوطنية، ونظموا قصائدهم المقاومة التي تواجه المأساة، وتفضح أساليب المحتل، وتبث الوعي الوطني بكل ما يجري... ما يعني أن أي ثورة أو مقاومة لا تتبنى قضية وطنية أو قومية أو رسالة إنسانية إنما هي فاقدة لشروط الحياة والديمومة، وعاجزة عن الارتقاء إلى قصيدة (الرؤية)...

ومن ثم فإن الأديب المقاوم يلح على استدعاء المفاهيم المقاومة، وكل صورها اللفظية والتعبيرية ليضعها في سياق فني متمرد....

وقد كثرت المصطلحات الفكرية والسياسية والعسكرية في أيامنا هذه؛ منها ما اتخذ دلالات وأبعاداً جديدة لم تكن لها في معناها الأول؛ ومنها ما ظل متصلاً بالمعنى الأصلي.

لهذا كله نقول: لعل من سوء طالعنا أننا نعيش في عصر تبدل المفاهيم؛ أو تزييفها بكل وعي... فنحن الجيل الذي تجرع الأزمات والنكبات والنكسات بكل أشكالها... نحن جيل النكبة الذي عاش على قصص اغتصاب فلسطين، وتشريد أهلها عام (١٩٤٨م) ومن ثم عانى من أحداث متصلة بها؛ في وقت عانت الأمة العربية من التمزق والتخلف والجهل... وهذا يعني أن مواجهة الكتاب والأدباء للمآسي والمصائب تمثلت بأزمات شتى ونكبات تلو النكبات ما جعلهم مسكونين بالمفاهيم الخلقية والأدبية والفكرية... محاولين استيعابها من جهة، ومجابرتها سلوكاً ووعياً من جهة أخرى... لهذا كان علينا أن نبرز مفهوم النكبة وارتباط النكسة بها، ثم مفهوم الأزمة كونها المفهوم الأشمل.

فالنكبة: المصيبة، وأصاب الدهر الإنسان بنكبة ونكبات ونكوب، ونكَب، أي أصابته حوادثه بالنوازل الضارة؛ والهلاك المبير.

والنكباء: كل ريح، أو هي ريح بين ريحين... وهي تهلك المال، وتحبس القَطْر... ونكباء الشمال باردة جامدة تأتي على الحرث والضرع؛ ونكباء الجنوب حارة قاتلة تتناوح فيها الأصوات<sup>(١)</sup>.

لهذا كله أدركنا سبب تسمية أحداث عام (١٩٤٨م) بين الصهاينة والعرب بالنكبة... إذ نكب العرب بصراعهم مع الصهاينة بمصائب كثيرة قتلاً وقهراً؛ نفيّاً وتشريداً؛ لجوءاً وصبراً، خياماً وبؤساً، ومن ثم كثر التناوح

---

(١) انظر لسان العرب (نكب) - دار صادر - بيروت.

والتباكي والعيول لخسارتهم... فضلاً عن أن مفهوم النكبة لم ينحصر بالهزيمة العسكرية لذلك العام، وإنما اتخذ أبعاداً دلالية عامة في الاقتصاد والاجتماع والتعليم... وصارت جملة (نحن منكوبون بكذا وكذا) - أي مبتلون ومصابون - مشهورة على كل لسان... لهذا فنحن منكوبون بالصهاينة بمثل ما نحن منكوبون بأزمة النفاق والادعاء، والكذب والشطارة و... ومنكوبون بضياع الهوية، والخصوصية الثقافية... فالنكبات في حياتنا غدت معضلة كبرى تقلب كل شيء رأساً على عقب...

ولهذا كله فالنكبة أكثر اتساعاً في الدلالة، وأعلى مقاماً في التأثير من النكسة؛ فإذا كانت النكبة خيبة ومرارة وهلاكاً في مجالات كثيرة فإن النكسة تنحصر في مجالات دون مجالات، علماً أنها - أيضاً - ذلٌ وصغار واستهزاء وضعف للأفراد والدول، وفي اللغة نكس الإنسان رأسه إذا طأه من الذل والهوان، وعليه قوله تعالى: (ناكسو رؤوسهم عند ربهم) (السجدة: ١٢/٣٢)... أي مائلو الرؤوس ومطرقوها خزيًا وحياءً وندماً. لذا أراد العرب أن يقللوا من شأن هزيمتهم عام (١٩٦٧م) مع الكيان الصهيوني فسموها نكسة. وقد أصابت النكسة العرب عامة ودول الطوق خاصة، فاتسعت دائرة اللجوء والهجرة لتشمل عرباً غير فلسطينيين... أي إن النكسة أضافت نفيًا على نفي، وغربة على غربة، وكأن القدر نصب شراكه للعرب حين نكبهم بالصهاينة والغرب الاستعماري، بعد أن انتفت العدالة وأخفق المجتمع الدولي في تصحيح مسار نكبة (١٩٤٨م) فعجز عن تنفيذ القرار الأممي (١٩٤). وبذلك فإن النكسة لا تقل مضاضة وألمًا عن النكبة؛ إن لم تكن أشد مرارة حين حولت عدداً غير قليل من العرب والفلسطينيين إلى لاجئين ومشردين. وشاع مصطلح (النكسة) بعد المواجهة العسكرية التي أدت إلى هزيمة العرب حتى صارت علماً لها فنقول نكسة (١٩٦٧م) أو انتكاسة... ولكن هذا لا يعني

أن المصطلح اقتصر على هذا المعنى، فهو مصطلح شائع في مجال الطب، إذا ساءت حالة المريض، فنقول انتكس انتكاسة، ونكس نكسة<sup>(١)</sup>...

أما الأزمة - مفرد الأزمات - فهي ذات دلالات كثيرة كلها تدل على الشدة والقحط والجذب والاستئصال والمصيبة مثلها مثل النكبة؛ وأعظم... وقال العرب: أزمتهم السنة أزمًا وأزمة، أي تتابعت في شدتها حتى استأصلتهم... والأزمة، - أيضاً - من الأزم، وهو المكان الضيق بين جبلين والمأزم: المضيق، والمأزوم: (اسم مفعول)<sup>(٢)</sup>...

ولعل هذه الدلائل لا تغترب في طبيعتها ووظيفتها عما يدل عليه معنى الأزمة في الاستعمال المعاصر، ولكنه يتناوب بين الدلالة الحسية والدلالة المعنوية في الإطار الذاتي والفكري والسياسي والاجتماعي... فنقول هو مصاب بأزمة نفسية أو سياسية أو... أي شدة وضيق وتشويه وإلغاء؛ و... والأزمات تتنوع وتتلون، تصغر وتكبر، تدوم وتزول؛ أي قد تكون آنية أو مؤقتة تستشري في مجال ما على الصعيد الداخلي والخارجي وقد تكون دائمة... وهذا ما يمكن أن نشير إليه فيما يأتي.

## ٢- أنواع الأزمات والنكبات

الأدب الذي يواجه الأزمات والنكبات - أيًا كان نوعها - أدب إنساني يؤكد الانتماء الأصل للآديب، ويثبت قيمة الهوية المميزة لطبيعة الشعوب المؤسسة على القيم الخلقية وكرهيتها لنزعة الشر التي تتاب النفوس الضعيفة والمريضة. وفي ضوء ذلك فالأزمات أو النكبات ذات اتجاهات وأنواع شتى في حدتها ووطأتها وعمق تأثيرها في حياة الأفراد والمجتمعات

---

(١) انظر لسان العرب (نكس).

(٢) انظر لسان العرب (أزم).

والدول، فعلى الصعيد الداخلي هناك أزمات كثيرة مثل (أزمة الأمية، وأزمة التعليم، والثقافة... وأزمة التخلف، وأزمة الحرية، وأزمة العدالة، و... وأزمة الإعلام، وأزمة المياه، وأزمة التلوث، وأزمة العمران، وأزمة الغاز، و... وأزمة الأسعار، وأزمة توزيع الثروة، والأزمة المالية، وأزمة البطالة، وأزمة العمالة، وأزمة التهريب، وأزمة الفساد، والأزمة الصحية و... وهناك أزمة محلية، وأخرى عربية، وأزمة دولية، و... وما يقع في مكان ما من أزمات قد لا يقع في مكان آخر كأزمة العمالة في الخليج - مثلاً - .

ومن ثم فإن الإحباطات التي تصيب الأدباء والكتاب من أزمة ما تحدث هنا أو هناك كثيرة.. تصل إلى حدّ الاضطراب النفسي والفكري، ما يؤدي بهم إلى حالة من الاستلاب - أحياناً - والانعزال، مؤثرين السلامة... ولكن هذا ليس قاعدة فقد تصدى بعضهم لمعالجة عدد منها كما يحدث في حالة الكتابة عن الفساد كالرشوة وسوء توزيع الثروة... إذ نسمع أصواتاً عالية تصرخ في وجه الفاسدين والمفسدين، وفي وجه الظلم والاستبداد والقهر، ولو انتهى الأمر بأصحابها إلى السجن أو النفي أو..

ولا شيء أدل على هذه النكبات من صرخة عبد السلام حبيب في وجه الخونة؛ والفاسدين الذين نُكبت بهم الأمة، ومما قاله:

الويل لك

ياخائن الشعب الجريح

لن أستريح

حتى تموت... سأقتلك

باسم الوطن

باسم الجراح الراحفة

باسم الجموع الزاحفة

سأقتلك

وينبثق صراخ الأديب في وجه الفساد بكل ألوانه من عشقه العظيم للوطن الجميل الذي يستحق التضحية بالغالي والرخيص، كما فداه أولئك الشهداء الأبرار... ومن ثم تغدو الأزمة النفسية أشد مرارة على لسان كل أديب ملتزم بالجمال والصلاح والتقدم والتطور بوصفه متلقياً للواقع وقارئاً له ومحللاً لأبعاده ومعبراً عنه برؤية جمالية نقدية، وبوصفه ذا حضور دائم للإبداع... فالأزمات الوطنية أو القومية أو الإنسانية تكتسب حضورها الإبداعي المتمرد على كل أشكال الفساد، لترسي مواطن الجمال في الذات الإنسانية. فالنص الإبداعي عنده يجسد روح الثورة والألق الجميل ضد القبح والتشويه والشر... وحيثما نثر صاحبه مجموعة من الرؤى والمشاهد المنحرفة عن الحقيقة يعتمد إلى التعبير الجميل عنها بشعره المقاوم لذلك، ساعياً إلى إعادتها إلى نصابها؛ بعيداً عن المباشرة والمحاكاة... وإن كان هذا الاتجاه يظهر في بعض الأحيان نتيجة ردة الفعل الصاعقة للحدث أياً كانت طبيعته.

ويعد الشاعر الراحل محمد الماغوط المولود في مدينة سلمية (١٩٣٤م) والمتوفى بدمشق عام (٢٠٠٧م) واحداً من الأدباء المتقدمين في هذا المجال؛ حين راح يجرب على تشكيل قصيدة الرؤيا الحُبلى بالأفكار السياسية والاجتماعية؛ من دون أن ينسى لغة الإثارة والإدهاش في العلامات اللغوية المحمولة على رؤى فكرية سياسية واجتماعية يتداولها العامة قبل الخاصة، وربما بلغتهم أحياناً ما جعله يعتمد (قصيدة النثر) وسيلته المفضلة للتعبير عن ذلك، ولا شيء أدل على هذا من قوله الذي يعبر عن رؤية الأمل بالحرية؛ ومنه:

فأنا أسهر كثيراً يا أبي

أنا لأنام

حياتي سواد وعبودية وانتظار

فأعطني طفولتي

وضحكاتي القديمة على شجرة الكرز

لأعطيك دموعي وحببتي وأشعاري

فوظيفة الشعر المقاوم عند الماغوط تستجيب لقوة الأثر والإثارة التي تتركها أي ظاهرة منحرفة في نفسه... أي إن استجابته لأمثال تلك الظاهرة الفاسدة كانت استجابة لرؤية نوعية، وتجربة ذاتية تخلق لديه القصيدة الثائرة التي تجمع بين لذة المتعة الفنية المعبرة عن حساسيته المرهفة وقوة نقده اللاذع وسخريته المرة لكل شكل من أشكال الفساد. ومن ثم فقد كانت لغته اللاسعة تمسك بالمتلقي، لأنها تنبثق من رحم الواقع المأزوم بالهموم والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية بعد أن اختزنت ذاكرته أشياء غير قليلة عنها. ويعد ديوانه (الفرح ليس مهنتي) أو ديوانه (حزن في ضوء القمر) في طليعة أعماله المؤسسة لذلك كله.. علماً أن عنوان كل منهما يثير في النفس تساؤلات كثيرة عن حالة البؤس التي كان يعاني منها هو وأمثاله.. فهو حزين باحث عن الحرية؛ مقاوم لكل زوايا الظلم والفساد... ما يعني أنه كان يعيش اغتراباً نفسياً، لكنه اغتراب أدبي إلى إبداع أدب مقاوم بكل أنماطه شعراً ومسرحاً، مثل مسرحية (المهرج)، التي أبدعها بعد نكسة حزيران (١٩٦٧م) ومسرحية (ضيعة تشرين) التي كتبها بعد حرب تشرين/أكتوبر (١٩٧٣م)...

وفي ضوء ذلك كان الماغوط ثائراً على كل شكل قديم للقصيدة العربية، في الوقت الذي كان مقاوماً لكل الأغلال التي قيدت حرية الإنسان؛ ما تشي تجربته الشعرية بكل الطاقات التعبيرية المشاكلة لانفعالاته من دون تكلف أو تصنع.. وهذا يؤكد أن شعره كان أدواته الأولى للعلاقة بين عالمه الخاص والعالم الخارجي، وهي علاقة تثبت حالة الوعي العالي بكل منهما.

أما الشاعرة فادية غيبور فقد عبّرت بمزيد من رهافة الحس عن  
أزمات شتى حين تحدثت عن شهيد ضحى بنفسه ليعيش وطنه سيّداً  
حرّاً، يسعى أبناؤه إلى بنائه وطناً من أحسن الأوطان. ثم تخيلت هذا  
الشهيد يعود ليرى وطنه؛ فإذا به وطن غير الوطن الذي عاش فيه؛ إذ  
صار أكثر شقاء وبؤساً، وفقراً وجهاً، لأن اللصوص والمرتشين والفاستدين  
عاثوا فيه دماراً؛ فما كان منه إلا أن يعود حزيناً باكياً، إذ قالت في  
قصيدتها (الشهيد):

لم يكن يحمل ورداً يوماً عاداً  
كان في كفيه نارٌ ودخانٌ ورماداً  
وأغانٍ شاحبه  
وعلى عشبٍ ذراعيه تقاسيمٌ حداداً  
وحكاياتُ البلاد الطيبة  
لم يكن يحمل ورداً  
فهو وردُ الأرضِ في هذا السّوادِ

\* \* \*

حدّثوه عن قلوبٍ ماتت الأحلامُ فيها  
عن عيونٍ فاتناتٍ لم تجدْ من يفتديها  
عن غيومٍ مُثقلاتٍ بينابيعٍ وألوانٍ غلالٍ  
لم تجدْ من يرتديها  
حدّثوه عن عصافيرٍ وأطفالٍ جياعٍ  
عن قرىٍ تخلعُ قمصانَ البراري  
ثمّ تذوي أماً من ساكنيها



حدّثوه عن حدودٍ مستعاره

عن جوازاتِ سفرٍ

حدّثوه عن لصوصٍ ورعاةٍ

سرقوا ضوئَ القمرِ

حملَ العائدُ عينيه بعيداً.

ويكى.

ثمّ بكى.

وتوارى ذاتِ يأسٍ

بينَ أشجارِ المطرِ

فالشاعرة مارست الكتابة الجمالية في صميم الرسالة التي تتبع من عملية الهدم والبناء لقضية من أهم القضايا التي يتعرض لها الوطن والتي تتجسد بنكبة الفساد. ومن هنا ندرك أن النص الجيد يبرز نفسه في قوة حضوره المعبر عن الانحياز إلى قضية الحرية والحق والتقدم والارتقاء... وفي صميم ذلك فإن الكاتب بما يملكه من ذائقة أدبية وحساسية مرهفة، ووعي متوفز يبصر ما لا يبصره غيره، ما يجعله يصوغ المؤلف بطريقة غير مألوفة؛ إمعاناً في الفرادة والإثارة. فالشاعرة تحترق بالحزن والقلق حين اختزلت تجربة ذلك الشهيد الذي ضحى من أجل وطن يتطلع إلى الحرية والتقدم والنهوض والسيادة... أي إنها تبحث - كالشهيدي عن كينونة وطنية جديدة؛ كينونة مضمخة بتضحيات الأبطال والمقاومين وتخلص لها، بعكس ما يفعله الفاسدون المفسدون.. وهو ما حرصت عليه في القصيدة.

وقد يتخذ الكلام عند أدباء آخرين وسائل شتى في مواجهة ذلك كأزمة اضطهاد المرأة - مثلاً - وطالما تناولها الأدباء قديماً وحديثاً. ويعدُّ نزار

قباني أشهر من تناول هذا الموضوع وطفق يستشعر آلام وطنه في صميم آلام المرأة، ومن ذلك قوله: (١).

إنني آسف يا سيدتي  
فأنا لا أستطيع أن أحبك  
في منأى عن وجع الأرض ...  
ووجع الإنسان  
ووجع التاريخ العربي .  
لا أستطيع أن أعانقك  
فوق بحر من العُهر ... والقهر ...  
لا أستطيع أن أمشط شعرك الطويل  
وأنت مستقلة  
على سطح هذا الكوكب العربي المحترق!!!

فالشاعر يعيش حالة الصراع الوجودية والوطنية ليخلق وطناً متعالياً على كل أشكال القهر الاجتماعي؛ وطناً يتجاوز البقع السوداء التي تعشش في زوايا كثيرة منه.

ويعبر الأدباء والكتاب في معالجة ذلك عن صوت الشعور بفقدان العدالة والمساواة... حتى غدت الأزمة الاجتماعية ثم السياسية من أكثر ما تردد على ألسنتهم... على حين نجد الأدباء - غالباً - يبتعدون عن معالجة أزمت أخرى كالأزمة المالية التي تواجه العالم اليوم؛ إذ اقتصررت مواجهتها على المحللين الاقتصاديين وبيان مؤثراتها الاجتماعية والسياسية والثقافية....

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ٢٤٥/٩.

فالكاتب الشرفاء يقفون - اليوم - في مجتمعاتهم كالأنبياء والرسل وهم يدعون إلى التمسك بالحياة الجميلة ثقافياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً... ويدعون إلى التشبث بالأرض التي تمتلئ بالحرية والديمقراطية والعدل والمساواة... أي إن الكتاب والأدباء الأحرار يمثلون لحن الحياة الأبهى حين يدافعون عن كرامة الإنسان وسعادته وتقدمه وارتقائه، أو عن الإرادة الحرة والقيم الفاضلة والأخلاق السامية؛ أما أولئك الذين يقعون أسرى مصالحهم الضيقة، أو يسقطون في تبعية الحكام والخوف منهم أو من كل مستبد ظالم فإنهم لا يستحقون منا إلا الاستهجان والسخرية... ولا يوجد أسوأ منهم إلا أولئك الذين وقفوا إلى جانب العدو خوفاً وجبناً، أو مراعاة لحساب الربح والخسارة فصمتت ألسنتهم صمتاً مخزياً، علماً أن بعضهم يضطلع بمسؤوليات كبرى هنا أو هناك، وعلى الرغم من ذلك يزعم أنه من المبدعين العظام... فأمثال هؤلاء وأولئك يتراجعون إلى الظل حتى تنتهي الأزمة مع المحتل المعتدي أو الظالم... لأنهم ما عاشوا إلا على الانتهازية والارتزاق والتسلق، والادعاء والمتاجرة بالانتماءات الوطنية الفارغة... صحيح أن صمتهم يمثل أزمة لنا وللأمة لكن صمتهم أيضاً هو الذي كشف مواقعهم ما يفرض على الأدباء الأشراف التصدي لهم قبل الناس جميعاً.

فالكاتب حين يتحدثون عن الانعتاق من سجن الأزمات والنكبات الرهيب المجسد بالجهل والتخلف والفقر، والفساد والإفساد، والاستبداد والظلم؛ والتفرقة والتمزق والادعاء، والنفاق... فإنهم يتمردون على واقعهم القاسي، لينطلقوا إلى رحاب الإرادة الخيرة... وهم في ذلك يتحدون الأزمات التي تواجههم، مهما تعرضوا للأذى والضرر... لأن أي أزمة من أي نوع يمكن أن تغدو تدميراً لحياتهم وحياة أوطانهم وأمتهم وقتلاً للأمال والأحلام التي يحملون بها في بناء الأوطان الحرة المستقلة العزيزة ولا سيما تلك الأزمات التي تتعلق بالحرية والديمقراطية... لهذا يقول سليمان العيسى: " أنا لست

شاعراً... أنا إنسان عربي يقاتل بالكلمة... يقاتل بالشعر، ليس الشعر همي، ولا هو قضيتي قلت هذا في كل ما كتبت، وسأقوله في كل ما سأكتب"<sup>(١)</sup>.

فالأدباء يواجهون بالكلمة والموقف معاً مختلف الأزمات التي تهدد الحياة والوجود والانتماء والهوية والثقافة المتجذرة في الأمة وتراثها على الصعيدين الفردي والجماعي؛ فيتحركون بكل ثقة للتعبير الحضاري والثقاب عن هموم مجتمعهم وأمتهم وينحازون إلى قيمها، أياً كان المستوى الفني الذي يعبرون فيه عن مواقفهم... وتبقى أزمة الحرية بكل أنماطها من أعظم الأزمات التي تصدى لها الأدباء والكتاب... وحين فجر الثوار مقاومتهم للاحتلال الأجنبي كانوا ينشدون الكرامة والسعادة لأوطانهم... فلما رفعوا منارة الانتصار لكرامة الأوطان واستقلالها وسيادتها بدماء الشهداء الزكية من كل الشرائع بما فيها شريعة الكتاب والمثقفين والأدباء، كان على هذه الشريعة قبل غيرها أن تتصدى لجبروت الظلم والاستبداد والاحتلال كيفما وقع؛ ومن أي جهة جاء، وفق ما حدث لشهداء السادس من أيار عام (١٩١٦م).... وقد برهن الكتاب والأدباء في كل مرة على قبس الروح الثائرة المتوهجة لديهم... حين أسهموا في حركة النضال الوطني والقومي، واستحضروا صور الماضي المشرق لاستنهاض أبناء الأمة... وهم الذين امتزجوا بمفهوم القلق الوجودي الحر الذي ينشد الحق والكرامة من دون أن تقع غالبيتهم في إطار المنافع الضيقة والمحدودة فمن منا ينسى الشهيد كمال ناصر، وهو يصرخ صرخته المدوية التي ثارت على القيد والسجن والنفي، حين قال:<sup>(٢)</sup>.

---

(١) العيسى ورحلة الظمأ - عبد اللطيف الأرنؤوط - مجلة الثقافة - ص ٦٤ - دمشق - تشرين ٢ - ٢٠٠٧م.

(٢) جريدة البعث العدد (١٣٦٤٤) تاريخ الثلاثاء (١٣٦٤٤/٤/٧م). وانظر ديوان محمود درويش ٤٥٦ و ٥٣٦ وانظر ما يأتي - ٩٩ - ١٠٠.

صرخت من قيدي أحركه  
في معصمي ...  
فلان لي قيدي  
وعويل أجفاني على خدي  
ودفنت بين جراحه حقي  
ونثرت في أعماقه وجدي  
وهزئت من قيدي أصفحه  
فلقد لمحت بعيني مجدي

وبهذا تعد أزمة الاحتلال للأرض والدول من أبشع الأزمات والنكبات التي تهدد الوجود والحياة والحرية والاستقلال والسيادة ... وكانت الثورات قد اندلعت في فلسطين منذ وقت مبكر لمقاومة الوجود البريطاني وقدم الصهاينة إلى القدس عام (١٨٩١م) ثم مقاومة العرب لمستوطنة صهيونية أخذت تتشأ في فلسطين بعد عام من مؤتمر (بال) عام (١٨٩٧م) ولما اندلعت الثورة العربية الكبرى (حزيران ١٩١٦م) انخرط عدد من الفلسطينيين في الجيش العربي. وانطلقت ثورة (١٩٢٠م) من القدس ومدن أخرى، وكانت بداية المقاومة للاحتلال الأجنبي... وتبعها ثورة يافا (١٩٢١م) ثم ثورة البراق (١٩٢٩م) التي تفجرت بسبب النزاع بين العرب والصهاينة حول (حائط البراق) واستشهد آنذاك (١١٦) فلسطينياً، وجرح (٢٣٢) بيد القوات البريطانية المحتلة؛ وهي التي أعدمته في (حزيران ١٩٣٠م) الأبطال الثلاثة (محمد جمجوم؛ وفؤاد حجازي، وعطا الزير) فغدوا رمزاً للمقاومة الفلسطينية بعد ثورة البراق.... وتعاقبت المقاومة حتى اليوم.<sup>(١)</sup> ولذلك لا بد من مقاومة الاحتلال بكل أنماطه، بالكلمة والموقف:.. ففقدان الأرض

(١) انظر مجلة فتح ص ٢٢ - ٢٤ - العدد ٥٨٥ - دمشق/ أيار ٢٠٠٨م.

والكرامة مفتاح لكل الأزمات التي يعاني منها الأفراد والأوطان؛ ما يعني أن الأزمات التي تحدث بفعل العامل الخارجي أكثر خطراً وأعظم بشاعة من أي أزمة داخلية، مهما قيل عن ظلم ذوي القربى... ومن هنا نفهم نداء توفيق زيّاد في قصيدته (أناديكم)<sup>(١)</sup>:

أناديكم

أشد على أياديكم

وأبوس الأرض تحت نعالكم

وأقول: أفديكم

وأهديكم ضيا عيني

ودفاء القلب أعطيكم

فمأساتي التي أحيا

نصبي من مآسيكم

أناديكم

أشد على أياديكم

أنا ما هُنت في وطني- ولا صَغَرْتُ أكتاي في

وقفت بوجه ظلامي

يتيماً عارياً حاي في

حملت دمي على كفي

وما نكَّست أعلامي

وصنّنت العشب فوق قبور أسلاي في

أناديكم- أشد على أياديكم!!

---

(١) الثورة ٢٤ / ١ / ٢٠٠٩م العدد (١٣٨٢٢).

فالشاعر أدرك قيمة فداء الأرض، واستشعر عظمة المقاومين من أجلها ما جعله يسعى إلى مقاسمة أولئك الأبطال كل ما يبوح به في لغة انفعالية مؤثرة تمسك بالموقف النضالي، الذي يفيض عنفواناً بالدفاع عن الأرض... فقصيدته نشيد يؤسس لمفهوم الانتماء والتضحية في سبيل الوطن؛ أياً كانت اللغة التقريرية التي تشبعت بها بنية النص الفني. ولعل هذه اللغة التقريرية هي التي فجرت دلالتها الانفعالية الصادقة للدخول إلى عالم المقاومة السحري؛ وهي لغة توحى بجوهر التجربة الذاتية لشاعر يعيش داخل الأرض المحتلة، ويجابه عملية الاقتلاع والإلغاء.

فالأدب - بهذا المعنى، ووفق ما وجدناه في النص السابق - هو العمق الحر للمشاعر الفياضة المتأججة بحب الوطن والأمة المغروس في التكوين الوجداني المستمد من تواصل العطاء النبيل بين الأديب والأرض. وفي صميم هذا الاتجاه كنا نستشعر موقف الأدباء ودورهم المميز في الحديث عن أرض الشتات، وحياة اللجوء بكل مراراتها وقسوتها ما جعلهم يضعون حق العودة إلى فلسطين نصب أعينهم. ولعل حياة اللجوء في المخيمات تؤكد صفة الالتزام بحق العودة، لأن تلك المخيمات تذكّر بالشتات والنفي القسري والموت الغريب عن تراب الوطن. فمن حق أي إنسان أن يموت في تراب أرضه التي ولد فيها، وألا يصبح قبره منفيّاً في ديار اللجوء كما كان صاحبه، فهو لاجئٌ حياً وميتاً... مهما تبدلت حياة اللاجئين، ومهما تبدلت خيام اللجوء المذكرة بالقهر والنفي، وإن صارت بيوتاً مكونة من الطين، أو الحجارة... فالمخيم الفلسطيني بكل ملامحه يؤكد حضوره في نفس اللاجئين المتمسكين بالأرض/ الوطن... ولهذا كانت الخيمة تقاوم اقتلاع الريح لها بمثل مقاومة الفلسطيني لأي اقتلاع من أرضه... ولا شيء أدل على ذلك

من الرموز التي حملها معه إلى أماكن اللجوء، ولاسيما مفتاح البيت وحجة الملكية.... فالتراب الفلسطيني غداً معادلاً موضوعياً للروح والطهر والنقاء، ولن تستطيع أوهام التسوية أن تخلصه من تدنيسه... ما يعني أن قدسية التراب ترتقي في المفهوم عن أي تصور بشري. لهذا ارتقى التعلق به إلى مظهر كوني أسطوري يسعى إلى إزالة وحشة العتمة عن أبناء الخيام المقهورين بالتشرد والغربة، والباحثين عن الطعام كما قال هارون هاشم رشيد<sup>(١)</sup>:

|                      |                       |
|----------------------|-----------------------|
| يتحدثون عن السلام    | وعن المحبة والوثام    |
| وعن الطفولة والصداقة | والأخوة والهيام       |
| حلو حديثهم لو أنهم   | أحسوا بالخيام         |
| بالإخوة الأحرار      | في ليل التشرد والظلام |
| بالموت يغرس نابّه    | الفتاك ينهش في العظام |
| بصغارنا المتشردين    | الباحثين عن الطعام    |
| بكهوفنا السوداء تزخر | بالأنين وبالسقام      |

ثم يقول:

|                      |                      |
|----------------------|----------------------|
| أنا لست أومن بالسلام | ولا بأنصار السلام    |
| أنا لست ألقى مدفعي   | يوماً ولن ألقى حسامي |
| حتى أعود ورايتي      | خفاقة فوق الأنام     |
| ويعود كل النازحين    | مع الهناء والابتسام  |

(١) الصوت والصدى - ٦٢ - ٦٥ - وزارة الثقافة السورية ٢٠٠٩م. وانظر ديوان محمود درويش

١٨ و٥٢٥ و٦٩٤ و٧١٤.



لهذا حيثما تكن الجريمة واضحة تكن النكبة فاضحة؛ وحيثما تكن الإرادة المقاومة ثابتة تكن الشهامة والعزة متألقة. فينتفي الذل والاستسلام والمساومة على الحق مهما كانت قوة العدو.

وإذا كانت القصيدة قد أشارت إلى مثل هذا الأمر فإننا سوف نقف عنده في الفصل الثاني<sup>(١)</sup>.

وفي صميم ذلك يكمن عمل المبدعين من الكتاب والأدباء في الوسط الداخلي أو الخارجي وعلى أي مستوى وصعيد... فكل أديب أو كاتب يوزع كلماته صرخة في حالكات الليالي، وظلام المسافرين على خيبة الأمل... فكل حرف يصبح منارة للسالكين وأنشودة يغردها بلبل في فروع الأيك... ومن ثم ظهر الكتاب والأدباء - أينما كانوا في الوطن العربي - شركاء في حيوية البحث عن الآمال الكبرى، والأحلام العظيمة للمصير المشترك للأمة - وقد دعونا جميعاً للوقوف بصدق ووعي لرؤية الواقع العربي المأزوم بأنماط شتى من المصائب داخلياً وخارجياً... فهم يتكلمون لغة واحدة في هذا الشأن؛ ويعتدون بتاريخهم النضالي الواحد ما يجعلهم ينادون بوحدتهم ووحدة أمتهم في مواجهة الأزمات والنكبات.

ولما كان أثر مواجهة الأزمات الداخلية - على أهميتها - ضعيفاً في أدب الأدباء والكتاب - وإن برز في إطار النقد السياسي ذي الأهداف النظرية والفكرية والحزبية - كان علينا أن نركز على طبيعة المواجهة ووظيفتها خارجياً ولاسيما فيما عُرف بتبني ثقافة المقاومة والتغني بها. وإبراز ذلك من خلال الأزمات الخارجية الممتلئة بالاحتلال والهيمنة المباشرة وغير المباشرة بوصف الأدباء يمثلون ضمير مجتمعاتهم ويصنعون لها درب الحياة الشريفة المتحررة من الذل والخنوع والاستسلام والظلم والقهر والغطرسة...

---

(١) انظر ما يأتي في الفصل الثاني ١٠٢ - ١٠٥.

## ٣- طبيعة المواجهة ووظيفتها

### ١- طبيعة المواجهة:

المقاومة منظومة متكاملة من وسائل الدفاع إعداداً واستعداداً؛ مواجهة وقتالاً بالكلمة والموقف والسلاح وفي الحديث الشريف " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان".

وهذا يعني أن هناك مقاومة ثقافية وقانونية، سياسية وأدبية، اقتصادية وإعلامية وعسكرية... وكل نمط من هذه الأنماط يأخذ موقعه من تعبئة المجتمع ضد الظلم والفساد، والقهر والاستبداد؛ والاحتلال والاستعمار... فالمقاومة تعبئ المجتمع فكرياً ونفسياً، وتجعله يستعد لمجابهة مسلحة منظمة وواعية، أعظمها خطراً مجابهة المحتل الغاصب للأرض والوطن؛ إذ تستدعي تعبئة كل الطاقات الوطنية والقومية.

ويمكن للمرء أن يقتضي حركة الموجات الأدبية في الوطن العربي، وأن يستشعر أثير الحق فيها على جناح الكلمة المحمولة على الأحلام المفعمة بالحياة والمرتدية لثوب المجد والكرامة في إطار مفهوم ثقافة المقاومة... ولو تعقب ذلك الملتئ مجلدات في هذا الشأن أو ذاك، وبخاصة أن هناك غير كاتب أو أديب تجاوز طبيعة البكاء على الأطلال، أو الخوض في أبواب التنظير... إذ كان جرح النكبات يكبر في الذات الإبداعية، ويطوق مشاعر الأديب ليفيض كلمات شفافة معبرة ومثيرة للنفوس من مراقدها ابتداء من استنكار مجازر كفرقاسم ودير ياسين ووصولاً إلى مذابح صبرا وشاتيلا، إلى محرقة بيت لاهيا ومخيم جباليا...

لهذا انحاز الأدباء والكاتب إلى قضايا أمّتهم، وطفقوا يقدمون الهدف من الأدب والكتابة الملتزمة، في صميم الأزمة أو الحدث الذي ترك في نفوسهم ندبات عظيمة.

ويمكن للمرء - أيضاً - أن يتتبع مع كل كلمة عتمة النفوس المتأرجحة على عتمة الذل والقهر والاحتلال؛ وهي ترنو إلى ضوء صغير يلمع في نهاية النفق المظلم... فيعيش بين وجع الجسد وعشق الروح في انتمائها إلى عمق الصفاء والألق الحر... ومن ثم يعيش في أمل الخلاص من أي نمط من أنماط الإذلال، و... فإذا كان حمام الدم في ساحات الصراع يقف في وجه الجلاد القاتل لترفع الضحية هامتها في ليل العتمة وتعلن انبثاق الفجر الساطع... فالدماء تغسل أصحاب النفوس الضعيفة، وتطهر ذهنية الخونة العملاء، وتتجه إلى البحث عن جدلية النصر بدل الهزيمة، مهما كان الخطر الداهم في حياتهم ووجودهم... ويظل الشعراء قنديلاً يشع بنوره الوضاء ليغسل درن النفوس؛ وهو يبحث عن الأمل الآتي مهما ازداد العرب تفسخاً؛ وحوصروا بالهزائم والنكبات، والخوف من كيان صهيوني مزروع في قلب الأرض العربية وقد تحصن بالسلاح والمال... فالأدباء يضعون أيديهم على العلة والمعلول بأسلوب واضح ودقيق، لأنهم أدركوا قبل غيرهم سبب الهزيمة في ساحة القتال، وأشاروا إليه. فالهزال المريض للأنظمة الرسمية ضعفاً وانقساماً وخوفاً وتردداً في اتخاذ المواقف الجريئة لمواجهة العدو الصهيوني كان وراء التوجه إلى الأطفال الذين طردوا الفزع والخوف والتردد من نفوسهم وراحوا يتصدون لآلة الفتك الصهيونية؛ من أجل بناء المستقبل العربي المنشود؛ فقد نفضوا أيديهم من الحكام الذين نكبوا أمتهم. وكذلك فعل الأدباء وبخاصة الشعراء حين عبروا عن ذلك بلغة مفاجئة؛ مثيرة ومبدعة، ومنحوها قدرة على الإيحاء والتجديد؛ ما أبعداها عن السقم؛ أو الموت... فالشعراء "يبيرون العلاقات بين الأشياء الخارجية المنفصلة. والمشاعر والأفكار الداخلية الباطنة"<sup>(١)</sup> برهافة حساسيتهم، ودقة ملاحظتهم

(١) انظر الصورة الأدبية ١٢٦ - مصطفى ناصف - .

وفطنتهم العميقة، وخيالهم الخلاق. إنهم قادرون على ما لا يقدر عليه غيرهم؛ كما تجلّى في قصيدة نزار قباني التي تحدث فيها عن بطولات الأطفال في الانتفاضة الأولى عام (١٩٨٧م) وعنوانها (الغاضبون)، مذكّرين بأن الانتفاضة ما كانت لتكون لولا الصراع العربي - الصهيوني إثر نكبة (١٩٤٨م) ونكسة (١٩٦٧م) وعجز النظام العربي الرسمي عن معالجة أزمة الأمة وجراحاتها؛ ومنها قوله: <sup>(١)</sup>

يا تلاميذ غزة

علمونا

بعض ما عندكم

فنحن نسينا

علمونا

بأن نكون رجالاً

فلدينا الرجال

صاروا عجينا

علمونا

كيف الحجارة تغدو

بين أيدي الأطفال

ماساً ثميناً

—

قد لزمنا جحورنا

وظلبنا منكم

---

(١) انظر شعر الانتفاضة في البعدين الفكري والفني ٩ - ١٠.

أن تقاتلوا التينا  
قد صغرنا أمامكم  
ألف قرن  
وكبرتم  
خلال شهر قرونا  
يا تلاميذ غزة  
لا تعودوا  
لكتاباتنا ولا تقرأونا  
نحن أباًؤكم  
فلا تشبهونا  
نتعاطى القات السياسي  
والقمع  
ونبني مقابراً وسجوناً  
حررونا من عقدة الخوف فينا  
واطردوا من رؤوسنا الأفيونا  
علمونا فن التشبث بالأرض  
يا أحياءنا الصغار سلاماً  
جعل الله يومكم ياسميناً

---

امطرونا بطولة وشموخاً  
إن هذا العصر اليهودي وهم  
سوف ينهار لو ملكنا اليقيناً

فنزار قباني أرجعنا إلى الذات الجماعية المأزومة بالضعف والعجز والخذلان والاستسلام والإحباط والقلق... ما جعله يعيد صياغة الواقع بهذه اللغة المثيرة التي تعتمد ضمير الجماعة المستند إلى أسلوب الالتفات في الأفعال والصور البديعية التي تعبر عن جمالية كسرت أفق التوقع في كل ما نتصوره عن الحكام العرب. ومن ثم صرخ صرخة مدوية تقلب كل مفهوم تعلمناه؛ ولاسيما حين كرر النداء (يا تلاميذ غزة..) و(النهي)؛ ما يشي بانفعاله القوي الغاضب محاولاً ملمة جراحه التي آلمته من مواقف الأنظمة العربية العاجزة والشعوب المقهورة بالخوف، والتردد و...، وراح يتمرد على الواقع المرّ الذي يشاهده من أولئك الرجال الذين انكسروا أمام الخوف والتردد، وانتكسوا إلى ذواتهم يتأوهون ويتمنون... من هنا توجه نزار قباني إلى أطفال الحجارة الذين هزموا الخوف من آلة القهر الصهيوني؛ ليندفعوا صواريخ قاتلة بأجسادهم وحجارتهم، وليهزموا فكرة العقلانية التي ميزت الحكام العرب. وقد شكّل الشاعر تجربته في الحياة والشعر من صميم المشاهد الحية التي تعلقت بها العيون والقلوب والعقول.

إن صرخة أطفال الحجارة هي لغة الأرض وإرادة التشبث بها؛ وجوهر الوجود الحي والكريم، ما جعل الشاعر يعلن للملأ كله بأن العصر الصهيوني الذي أربع الأنظمة العربية الرسمية وهّم، وسوف ينهار.

ولعل تحليل الأدب المقاوم في مواجهة الأزمات والنكبات ينتهي بنا إلى تحليل الشكل والمضمون على السواء وهو تحليل للعلاقة بينه وبين الأدب الوطني والقومي؛ بوصف الأدب المقاوم جزءاً لا يتجزأ من الأدب الوطني القومي؛ على وجود الفوارق في الماهية والجوهر فالأدب الوطني والقومي أكثر تشعباً، وهو يتسع لشؤون كثيرة، سياسياً واجتماعياً وخلقياً و.. علماً أن عدداً من القصائد الوطنية أصبحت خالصة لمفهوم المقاومة المباشرة وغير المباشرة. فإذا كان الأدب المقاوم مواجهة مباشرة في التعبير عن اللحظة الآنية لجريمة من الجرائم فإن النص - فنياً - يتجه - أحياناً - لحساب

الشكل على المضمون، ولحساب المشاعر الجياشة على الرؤى العميقة... وليس هذا عيباً لأنه ينتمي إلى الأدب العاطفي النبيل، والأدب الإنساني النظيف في صدقه وحبه لوطنه، والتزامه بقضاياها وهمومه... ما يعني أن الأدب المقاوم في ساعة المعركة يتميز عنه فيما بعدها... فالنص في المرحلة اللاحقة سيؤكد عملية معنى المعنى، على حين أن الأدب في المرحلة الشعورية لحالة الصراع العسكري سيؤكد الشعور الصادق والمعنى المباشر معاً.

ولذلك فلكل مرحلة آليات وصيغ مختلفة تتمخض عن الموقف زماناً ومكاناً وتفسح المجال عظيماً للمعالجة ذاتياً وموضوعياً.

ثم إن القراءة النقدية للأدب في حالة المواجهة المباشرة تتناول إعادة تشكيل النص وموقف الأديب من خلال التشكيل الشعوري الدلالي الصادق، لا من خلال الخيال الفني وإلا وقعت القراءة في البعد عن الموضوعية... وعلى الناقد أن يملأ الفراغات الكثيرة بين العبارات المشحونة بالانفعال والصدق الإنساني، ولا سيما حين يلجأ الأديب إلى التكرار وتمثيل الواقع المأساوي، والجرائم الفظيعة بحق الإنسانية لأن أي قارئ لا يمكنه أن يوقف الزمن عند لحظة ما فالنص ابن ذاتية منفصلة بالحدث في زمانه وبيئته الاجتماعية والثقافية، ولا بأس علينا في هذا المجال أن نشير إلى نص (سريناد القمر الأسمر) ليوسف الخطيب فهو نص مقاوم من الدرجة المتميزة بما يحمله من الرموز الدالة على الكفاح والنضال (الأرض، الإنسان، الحرية، الليل وأطفال أريحا، الجرح، المقاومة، التفاح، الزيتون و..) وكلها موظفة للارتباط بالانتماء إلى الهوية والأرض. فالشاعر كان محمولاً على سيف الحق المتعب بالتأمر وظلم الدول الكبرى للحق العربي في فلسطين. ومما قاله في هذا النص<sup>(١)</sup>:

(١) المقاومة - منتخبات شعرية ١٠٩ - ١١٥.

الليلة هم آتون العرس ثلاثة عرسان  
وثلاثة أقمار تتغسل في جدول بستان  
فتخرجن الحناء نساء فلسطين  
تطيبن الأنداء نساء فلسطين

\* \* \*

أن تلد امرأة قمراً أسمر  
أن يرضع أن يلعب أن يكبر  
أشهد أن الله جميل  
والليلة وَجَدَ وحنان  
يا امرأة من دجلة تساقطُ بلحاً  
في أرض فلسطين  
أيا نخلة عَدَقِ تشتعلين  
يا امرأة من أعلى النيل  
ومن أقصى المغرب والمشرق  
أنتن الآن - نساء العرب - حليب الثورة

فاستحضر الأعمار والعرسان رمز للمقاومين العرب والوجود الحر،  
لهذا تحول النص إلى التعلق بالمرأة الذي يؤكد التعلق بتحرير فلسطين لأنها  
قضية العرب جميعاً، فالمرأة رمز نضالهم وخصوبة مقاومتهم، أي إنها  
الحضور النهائي للفداء والتضحية بوصفها ترمز إلى بهاء الجمال للمقاومة  
التي يرضع منها الأبطال حليب الثورة. ولعل النظرة المتأنية للنص تثبت روح  
التناس العذب بينه وبين قوله تعالى: [وهزي إليك بجذع النخلة تساقط  
عليك رطباً جنياً] (سورة مريم، ٢٥)، ويبقى للنص الشعري روح الربط بين



النخلة والمرأة وكل منهما يقدم ولادة حرة للأرض بما تقدمه من خير عميم يفيض بالعطاء والثورة... ويمثل ما اكتسبت مريم (عليها السلام) صفة القداسة فإن المرأة العربية اكتسبت هذه الرؤية في النص السابق. وبناء عليه فإن محتوى النص يتنوع في تغير علاماته الشعرية المعبرة عن طبيعة الشعر المقاوم وقد أصبحت المرأة والشجرة إحدى علامات الأرض المشتعلة بألق الحرية. وبهذا فهو نص يختلف اختلافاً كبيراً عن نص محمود درويش المعنون (وعاد في كفن). فدرويش في هذا النص يتحدث عن معاناة الشعب الفلسطيني من الاحتلال الصهيوني الذي أراد اقتلعه من أرضه، بيد أنه أصر على التثبيت بها على الرغم من أنه يلحق جراحه؛ ما يئس ولا استسلم... يفديها بروحه ويقاوم الغاصب المحتل بكل صلابه، فقد أيقن بأنه مشروع شهادة؛ ولهذا فنص شاعرنا محمول على عرش التضحية والفداء، ونضارة الغد الآتي الذي يفيض من شفافية الكلمات الشعرية التي تهفو إلى الحرية... ومنها قوله<sup>(١)</sup>:

يحكون في بلادنا

يحكون في شجن

عن صاحبي الذي مضى

وعاد في كفن

ما قال حين زغردت خطاه خلف الباب

لأمه: الوداع!

ما قال للأحباب - للأصحاب:

موعدنا غداً،

ولم يضع رسالة كعادة المسافرين

---

(١) ديوان محمود درويش (أوراق الزيتون) - ١٠.

تقول: إني عائد- وتسكت الظنون

ولم يخط كلمة ...

تضيء ليل أمه التي ...

تخاطب السماء والأشياء

فمحمود درويش مسكون بأمل العودة إلى جناح النضال والفداء؛ ملقياً وراء ظهره كلَّ أشكال الضعف والعجز، وقد تسلح بالصبر والمقاومة، في جوهر العشق للسماء وشمسها المتألقة. ولعل موطن الإبداع في هذه القصيدة يكمن في إعادة صياغة الواقع النضالي صياغة تعبيرية محمولة على مبدأ التداوي الحر والمثير لحكاية طريفة تعزز قيمة الفداء والتضحية فنقلنا إلى حالة من الدهشة ولاسيما حين عرف كيف يغدو المرء مقاوماً لتحرير أرض الوطن، ومن ثم ليضمه ترابها الغالي شهيداً، والشهيد قيمة ثورية مقدسة تعيش في ضمائرنا.

ومن هنا فما إن يرحل شاعر ما حتى يترك لمن بعده ذخيرة أدبية نضالية في مواجهة النكبات التي عانت منها أمته إبان حياته... لذلك فإن الأجيال بعده تتفياً بخيمته الدافئة، وتنام في ظل أدبه المشحون بالعاطفة الصادقة والمحمولة على رؤى متميزة... فما زال (محمود درويش) الغائب الحاضر ينادينا إلى فلسطين إلى سيدة الأرض، أم الأرض، وما زال (غسان كنفاني) يسعنا في (خيمته)؛ الوطنية المليئة بعذابات النكبة والممتلئة بالألق الوجودي عما آل إليه أبناء وطنه من مرارة وأحزان؛ ولاسيما حين سرقت الأوطان أمام الأنظار بالقوة والقهر ما يعني أن الخيمة غدت خيمة<sup>(١)</sup> لإنجاب الثوار والبطولات والمقاومة، مثلها مثل أماكن المنايا واللجوء؛ فبذل الأدياء أرواحهم في سبيل الوطن؛ مثل عبد الرحيم محمود الذي استشهد في معركة

(١) انظر ديوان العودة - على سبيل المثال ص ١٩٦ و١٩٨ و٢٠٠ و٢٠٦ و٢١٧ - ...

الشجرة وكمال ناصر الذي استشهد في بيروت وغيرهما ممن ضحى من أجل فلسطين ومن أجل أرضه الغالية.

فالوطن محاصر مسجون، والبحر يتحدث مع النجوم، وشعراء المقاومة في الأرض المحتلة يمجدون الحياة والنضال، ويغنون لسنايل القمح التي تخضر بدم الشهداء، ويتمنى الشعراء الذين يعيشون في المنافي أن يشاركوهم صمودهم، ويأبى الزمن إلا أن يلوي عنق رغباتهم، فينهّدون حسرة ولوعة في بلاد المنافي يستشعرون المشاركة الوجدانية كما تقول فدوى طوقان: <sup>(١)</sup>

أحبائي

مسحت عن الجفون ضبابة الدمع الرمادية

لألقاكم وفي عيني نور الحب والإيمان

بكم، بالأرض، بالإنسان

فواخجلي لو أني جئت ألقاكم

وجفني راعش مخذول

وها أنا يا أحبائي هنا معكم

لأقبس منكم جمرة

لأخذ يا مصابيح الدجى

من زيتكم قطره

لمصباحي

ولعل هذا كله يذكّرنا - أيضاً - بأن الأديب المقاوم، بوصفه مثقفاً عضوياً مهموماً بقضايا أمته وقيمتها ومبادئها، يقدم نفسه قرباناً لمعتقداته

(١) ديوان العودة ٢٣٢.

إذا لم يرَ أنه وصل إلى تحقيقها، كما وجدناه عند عدد من الشعراء؛ علماً أن قسماً منهم أصيب بالإحباط؛ فانتحر مثل خليل حاوي.

ومن هنا ننتقل إلى وظيفة الأدب.

## ٢- وظيفة المواجهة:

يتجلى الأدب في مواجهة الأزمات والنكبات سيفاً قاطعاً لكل ألوان القيود، لأنه ينتشل النفس من الحزن والآهات والدموع والحسرة، والندم والقلق، والعدم والموت وينطلق بها إلى اعتناق كامل للمجتمع والأمة من هذه الحالات الضعيفة ليرتقي بهما إلى ألق المجد والعزة والاستبشار بالنصر أو نيل الشهادة العظيمة.

فوظيفة الأدب المقاوم للنكبات والأزمات ووظيفة مقدسة نبيلة تسطع في مواجهة عالم الحقد والجريمة الوحشية والإبادة لبني البشر... ما يعني أن الأديب المقاوم يصبح لغز الألغاز في التعبير عما يشاهده ويشعر به بلغة الانزياحات الفنية والفكرية بعد أن تفاعل بالدهشة القاتلة والصدمة المروعة لذلك.. فهو لم يقع في الخيبة والمرارة والبكاء كعامة الناس، لأنه ليس مثيلاً لهم بما يحمله من حساسية مرهفة ووعي شمولي عالٍ وفكر وقاد يتربع على عرش الثقافة الفنية والأدبية، ما يشي بأنه يتبته على كل ما يجري، وينفتح عليه ليعبر عنه برؤية شعورية جادة وأصيلة... وليس مثيلاً للسياسي الذي يحسب كل شأن بحساب الربح والخسارة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، على الصعيدين المحلي والدولي... فحين يتبنى الأديب ثقافة المقاومة في مواجهة الحزن الوجودي من القهر والظلم والعنجهية؛ والحقد الذي تمارسه الصهيونية يمكن لبعض السياسيين أن يتبنوا خيارات أخرى...

وعليه فإن الأديب والمثقف أو الكاتب الملتزم يتبنى إيقاظ المشاعر الوطنية والقومية والخلقية للالتزام بقضايا مجتمعه؛ من دون أن يعطل مفهوم

العقل في هذا الالتزام... فصور المآسي والنكبات في النفي واللجوء والغربة تلح على القلب والعقل فتثير التوتر فيهما، وإذا تكثفت هذه النكبات وتلاحقت أمام عيني المبدع أثارت لديه حساسية عالية لنبذ كل أشكال الصور المرعبة والمؤذية. فالشاعر محمود درويش - مثلاً - يصدمننا بعبارة (وطني ليس حزمة من حكايا...) وإنما هو شعلة وضياء للانتفاض على كل صور الحزن... هو نخلة سامقة تتمازج فيها لوحة الحياة العزيزة . ومن ثم يغدو الأدب شفاء للجراح والآلام الكثيرة التي تعاني منها الأمة في إطار المواجهة لا في إطار الهروب وهذا كله ما عبر عنه ذات يوم حين غنى للوطن الحر السيد فقال<sup>(١)</sup>:

وطني ليس حزمة من حكايا

ليس ذكري، وليس حقل أهله

وطني غضبة الغريب على الحزن

وظفل يريد عيداً وقبله

ورياح ضاقت بحجرة سجن

هذه الأرض جلد عظمي

وقلبي

فوق أعشابها يطير كنخله

علقوني على جدائل نخله

واشلقوني فلن أخون النخله

وقد شهد التاريخ العربي والإنساني حضوراً فاعلاً في نفوس الكتاب والأدباء كلما ألمت النكبات والمآسي بأمتهم... لذا انبروا يتتبعون حركة صراع الأحداث التي تجري بين ظهرانيهم...

(١) ديوان محمود درويش - ١١٠.

هذا ما تأسس منذ العصر الجاهلي في الافتخار بمولد الشاعر المدافع عن أحساب القبيلة وأنسائها وأيامها<sup>(١)</sup>، والمنافحة عن الهوية الواحدة إذا ألمت بها الأزمات كما حدث مع الشاعر لقيط بن يعمر الإيادي<sup>(٢)</sup>، والأعشى<sup>(٣)</sup> وغيرهما. وهذا ما مارسه شعراء الدعوة في عصر النبوة، واستمر إلى يومنا هذا.

فالأدباء والكتاب يسعون إلى تأكيد حقوق أمتهم الخلقية والثقافية والسياسية والاجتماعية بوصف هذه الحقوق حقوقاً حضارية ووجودية تؤكد المروءة والوفاء والحب والانتماء... ما يعني أن الدفاع عنها يعد رسالة إنسانية في إطار الانتماء الحي والفاعل لإرساء الوعي في النفوس. لهذا فإن كل واحد منهم يرسم الآفاق التي تؤكد ذلك كله، ما يثبت أن السلطة الأدبية والخلقية تمنح الأدباء قيادة الجماهير وتدعم موقفهم في إرساء وعي الإرادة العربية بالتمسك بالثوابت الوطنية والقومية، في الوقت الذي تسعى هذه السلطة إلى الإمساك بزمام تغيير الحياة نحو مبادئ الخير والجمال، أي إن الأدباء والكتاب يسعون إلى الارتقاء بالمجتمع إلى مشروع حياة وطني خلقي وإنساني جميل... فهم يؤمنون بأن رسالتهم ليست مجرد رسالة فنية وأدبية وإنما هي رسالة تحمل وجوهاً كثيرة، وفي طبيعتها تنوير مجتمعاتهم بالمحافظة على مصالح أوطانهم وأمتهم... أي إن أدبهم يغدو القوة الضاربة مادياً ومعنوياً لترتيب حياة الأوطان والأمة...

فالكتابة - أيأ كان نوعها - إنما تعدُّ ضرباً من التحدي والمواجهة لكل صنوف الأزمات والفوضى والعنف والقتل والتدمير... وهي تتأصل في النفس نتيجة استجابات، ومشاعر ورؤى متنوعة... فالوطن - مثلاً - ليس

---

(١) انظر العمدة - لابن رشيق - ٦٥/١ وانظر فيه ٢٥/١ - ٣٢ و٧٦ وما بعدها.

(٢) انظر ديوان لقيط بن يعمر ٣٥ - ٥١.

(٣) انظر ديوان الأعشى الكبير ٢٤٠ - ٢٤١.

كلمة تلاك في الأفواه؛ وإنما هو شعور بالانتماء إلى أرض وثقافة ولغة وعادات وتقاليد... ينمو ويرتقي ليصبح معادلاً موضوعياً للذات والوجود... ما يجعله يغدو على لسان الأدباء قصيدة مرهفة تتغنى بها الشفاه، وهذا ما نستشفه من شعر محمود درويش في (أغنيات إلى الوطن) ومنها<sup>(١)</sup>:

وطني - يا أيها النسر الذي يغمد منقار اللهب

في عيوني

وطني إنا ولدنا وكبرنا بجراحك

وأكلنا شجر البلوط

كي نشهد ميلاد صباحك

فالحديث عن الوطن الشامخ، والمزروع في العيون يتجلى في هذه العبارات المتدفقة والمعبرة عن الزمن الممتد في التكوين ما يجعله يتوهج بحرية المقاومين كما تعبر عنه الجملة الأخيرة، إذ ترمز كلمة (ميلاد صباحك) إلى استدعاء الفعل الثوري الإبداعي لحرية الوطن الذي سكن روحه، فصار جزءاً أصيلاً يتنفس من رثته.

وهذا ما يمكن أن نراه لديه أيضاً حين يتعرض وطنه للحصار الجائر من القريب قبل الغريب المعادي... ومن هنا يجرد الأديب كلمته سيفاً قوياً بتاراً؛ ويقود سفينة الكلمة القذيفة ليبث الحماسة والتشبث بالأرض دفاعاً عن الوجود... فالحصار لم يترك للمقاومين كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً بديلاً عن الدفاع عن وجودهم بعد أن خذلهم أبناء جلدتهم ممن أطاعوا الروم. وبهذا - أيضاً - يفضح أساليب العدو لحصار إخوته المناضلين في بيروت و في وطنه حين يمنع عنهم الماء والغذاء و.... ليغتال كرامتهم قبل حياتهم؛ ما يعزز

(١) ديوان محمود درويش - ١٠٩.

فكرة إبداع الدلالة من تلك الأشلاء التي تختزن أسماء أصحابها؛ وهي - في الوقت نفسه - تكشف عن تجليات المأساة الكبرى، فيقول<sup>(١)</sup>:

أشلاؤنا أسماؤنا لا ... لا مفرُّ

سقط القناع عن القناع عن القناع

سقط القناع

لا إخوة لك يا أخي؛ لا أصدقاء

لا الماء عندك، لا الدواء، ولا السماء، ولا الدماء

ولا الشوارع ولا الأمام ولا الورا

حاصر حصارك لا مفرُّ

سقطت ذراعك فالتقطني

واضرب عدوك بي ... فأنت الآن حرُّ

-

ذهب الذين تحبهم، ذهبوا

فإما أن تكون

أو لا تكون

سقط القناع

عرب أطاعوا رومهم

عرب وباعوا روحهم

عرب وضاعوا

ولعل تكرار لازمة (سقط القناع) تتفجر بالرؤية الشعرية المتوهجة التي تعدُّ مدخلاً إلى كل النكبات التي حلَّت بالشعب المقاوم الذي فقد العون الصحيح

---

(١) ديوان محمود درويش ٣٥٧ - ٣٥٨.



من إخوته؛ وكأنه فقد الماء والغذاء والدواء... ما يعني أن تكرار اللازمة  
تؤسس للمغزى الفكري والنفسي والفني في تواشج بين العام والخاص.

ثم انبرى درويش يتحدى حصار العدو الصهيوني المجرم، ويتحداه  
معلنًا عن اسمه في مواجهته دون خوف أو وجل مهما كانت إجراءاته متوحشة  
ولعل ما يميز نصه القادم إصراره على تكرار ضمير (أنا) ظاهراً وامتصلاً؛  
وهو ضمير يتماهى بالضمير المعبر عن الوطن الذي يكمل فيه أغنيته...  
فذاكرة الشاعر ومشاعره تعانق كينونة الأرض والوجود مهما كان فعل  
الحصار قوياً ومؤذياً... وكلما ازدادت شراسة الحصار ازداد المقاومون  
ارتباطاً بالوطن، والتمسك بحريته. فيقول<sup>(١)</sup>:

أنا أحمد العربي فليأت الحصار  
جسدي هو الأسوار فليأت الحصار  
وأنا أحاصركم  
أحاصركم  
وصدري باب كل الناس فليأت الحصار  
قاوم يا أيها البلد المسدس في دمي  
قاوم  
الآن أكمل فيك أغنيتي  
وأذهب في حصارك

إن هذه النماذج وأمثالها تثبت أن الأدباء مشاعل نور على طريق  
الحرية والتضحية في سبيل الوطن، وهم يحاولون أن يمنحوا شجرة الحرية  
قامتها الباسقة والواضحة... لا أن يبقوا في الظل أو يختبئوا في تلافيف  
الكلمات المهادنة والمستسلمة..

---

(١) انظر ديوان محمود درويش ٣٠٥ - ٣٠٦ وانظر فيه ٥٣٥ - ٦٢٨.

وهم بهذا يمنحون المجتمع القدرة على الثبات والنضال؛ وينشرون بحبر أقلامهم إرادة الشعب الذي لا يقهر ولا يذل مهما كانت حمامات الدم التي ترتكب بحقه قديماً وحديثاً. فالدماء والجراحات التي زكمت الأنوف، وغسلت الأجساد من أوضارها فتحت العيون على الأعداء الذين استخدموا آلة الفتك السوداء المتوحشة بحق الأبرياء. وقد اشترك الأدباء الأحرار في تقاسم هذه المعطيات المشتركة للأدب المقاوم بأنماطه كلها اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً؛ وثقافياً كما وجدناه عند (غابرييل غارثيا ماركيز) "رائد الواقعية السحرية" فقد كانت "أحداث روايته العاصفة، وعلى ستة أجيال من أسرة (بوينديا) مؤرخاً بسرده الساحر المختل للحروب الأهلية والصراعات الدموية حتى لحظة الفناء والانحدار الكلي لتلك الأسرة"<sup>(١)</sup>.

وإذا كانت هذه الآلة قد فتكت بالجسد العربي ونشرت أشلاءه قطعاً وشظايا فإن الأدباء والكتاب استطاعوا أن يعيدوا الحياة إلى هذه الأشلاء المنثورة لتصرخ صرخة المقاومة المدوية في وجه العدو... فالموت ليس مصير هذه الأمة الحضارية العظيمة، بل موعدها مع الحياة الكريمة والحرية بوصفها هدفها ومصيرها؛ لهذا رأوا أن منهج المقاومة وحده هو الذي يحقق ذلك لهذه الأمة بالسلاح والموقف والكلمة أياً كان نوعها في الشعر والمسرح والقصة وأدب الأطفال وفي الفن...<sup>(٢)</sup> وقد واكبت القصة والرواية حركة المقاومة الفلسطينية

---

(١) انظر مقال: الأسئلة المعلقة - عمران عز الدين أحمد - ملحق الثورة الثقافي (العدد ٦٢٨ - تاريخ ٢٠٠٩/١/١٣).

(٢) انظر جريدة البعث - العدد (١٣٥٩٦) الثلاثاء (٢٧/١/٢٠٠٩م) تاريخ المسرح الفلسطيني ١٩١٨ - ١٩٤٨م لنصري الجوزي المقدسي - ص ٧، وانظر الثورة العدد (١٣٨١٠) - الاثني عشر ٢٠٠٩/١/١٢م - ص ٢٤ حول السينما والمجازر الصهيونية ومجلة تاكي - العدد ٣٥ - عمان - الأردن - ص ٣٩ - وانظر مجلة الثقافة - العدد الخاص - كانون الأول ٢٠٠٨م - ص ١١ و ٢١ و ٣٥ و ٣٨.

مبكراً في عدد من الدول العربية<sup>(١)</sup>، وحين كانت مقتصرة في مصر على التأريخ أخذت - من بعد - تعنى بالحدث المقاوم ذي البعد الوطني والاجتماعي. وهذا ما انصرف إليه غالي شكري في كتابه أدب المقاومة الذي احتفى برواية المقاومة<sup>(٢)</sup>. ولم تتخلف القصة والرواية النسوية عن هذا المفهوم النضالي لمقاومة الاحتلال الصهيوني وفضح أساليبه الوحشية<sup>(٣)</sup>.

ولا بأس - في هذا المقام - أن نشير إلى رواية (الأمانة)<sup>(٤)</sup> لجمال جنيد؛ فهي تروي حكاية عائلة هُجرت من مجدل شمس بسبب الاحتلال الصهيوني الذي واجهته بعزيمة واقتدار؛ وضحت بالغالي والرخيص من أجله فاستشهد أبو عساف وراحت روحه تطوف في سماء بلده لا تفارقها، فتراه يتابع كل صغيرة وكبيرة عنها... أما أم عساف فقد تمسكت بتراتها الشعبي الذي يؤصل انتماءها إلى التراث والثقافة التي نشأت عليها؛ فضلاً عن أغانيها الشعبية الدالة على حب الأرض والهوية الثقافية العربية. ثم إن أبناء الجولان لا ينامون على ضيم، فما زال الشباب ينضمون إلى مقاومة المحتل الصهيوني بدءاً من استشهاد عساف عام ١٩٦٧ ومروراً بكل من انضم إلى المقاومة وفي طليعتهم ابن عمه فياض.. والأمانة ليست إلا البندقية التي خبأها الشهيد عساف تحت شجرة زيتون، لكي يستمر نضال أخيه زياد وغيره...

وهذا كله ينقلنا إلى (غزة) وبطولاتها وتضحياتها بوصفها النموذج الحي والحاضر.

- 
- (١) انظر رواية المقاومة ٢٤٢ - ٢٦١ - عبد الله أبو هيف - مجلة الكاتب العربي - العدد ٧٥ - الاتحاد العام للأدباء والكاتب العرب - دمشق ٢٠٠٧م.
- (٢) انظر أدب المقاومة ١٢٨ - غالي شكري - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٠.
- (٣) انظر مجلة (تاكي) العدد - ٣٥ - عمان / الأردن - ٢٠٠٨م - ص ٢٠ و ٢٨ و ٣٠ و ٥٥.
- (٤) تحولت هذه الرواية إلى فيلم سينمائي وثائقي يتحدث عن بطولات أبناء مجدل شمس، وأخرجه زياد جريس الرئيس.

## ٤- غزة أنموذجاً:

ما حدث من العدوان الصهيوني الوحشي على غزة خلال (٢٣) يوماً بدءاً من ظهيرة (السبت ٢٧/١٢/٢٠٠٨م) حتى يوم الأحد (١٨/١/٢٠٠٩م) يفرض على كل إنسان قراءة نقدية وموضوعية عميقة ودقيقة... قراءة توظف كل ما نملكه لرؤية الحقيقة، ومعرفة دور الكتاب والأدباء في حركة الصراع العربي - الصهيوني عامة، والعدوان على غزة خاصة... فقد تأبّت غزة على نعش الموت؛ إذ حبست دموعها، وواجهت نكبتها الدامية على درب المقاومة الحرة الأبية الشريفة من أجل أن تعيش الأمة كريمة عزيزة. لهذا ضحت بما يزيد على (١٤٠٠) شهيد و(٥٧٠٠) جريح، جراحات كثير منهم خطيرة؛ ولاسيما أولئك الأطفال الأبرياء والنساء الماجدات اللواتي علقت أجسادهن بأديم تراب غزة...

فالسهاينة - لعقة الدم - لم يهدأ لهم بال حتى أخذوا يمعنون في ذبح الشعب العربي عامة والفلسطيني خاصة؛ وقد وصل الأمر ببعض قاداتهم إلى حلم التخلص من هذا الشعب ولاسيما أهلنا في غزة... فاسحق رابين - رئيس الوزراء الأسبق - كان يتمنى أن يصحو ليرى أن البحر قد ابتلع غزة أما (أفيغدور ليبرمان) رئيس حزب (إسرائيل بيتنا) ووزير خارجيتها فيما بعد فقد حاضر في طلبة جامعة (بار إيلان) وخاطبهم قائلاً: (الحل موجود... كما فعلت الولايات المتحدة مع اليابان في الحرب؛ يجب إلقاء قنبلة نووية على القطاع وتدميره بالكامل، والانتهاه من هذه المشكلة نهائياً. وبذلك لا يكون من داعٍ لاحتلال غزة؛ ونتخلص من وصف العالم لنا بأننا قوة احتلال).

فشعب غزة كتم غيظه، وصمد صموداً أسطورياً كان معجزة للعالم في التاريخ الحديث؛ وهو يواجه آلة الفتك الهمجية التي تسلحت بكل أنواع الأسلحة المحرمة والمدمرة...

فغزة مثلت إرادة الحياة والانتصار لها في مواجهة الصهاينة الذين  
تفنوا بصياغة مخططات الإبادة وتنفيذها... مخترقين كل مبادئ حقوق  
الإنسان والشرعة الدولية... وأرادوا تصفية القضية الفلسطينية برمتها من  
خلال القضاء على قوى المقاومة في غزة، مدعومين بالقرار الأمريكي والنفاق  
الأوروبي والانقسام العربي وضعفه المستمر.

وقد أذكت غزة مشاعر الأدباء والكتاب، وفتحت ذاكرتهم وعيونهم على  
الأبرياء الذين نذروا حياتهم للأرض، ورووا ذراتها بدمائهم الزكية... وطفقت  
غزة تتبت البطولة والقصائد التي ترود آفاقاً وصوراً للتضحيات والمجد  
والكرامة... فكل حرف في أدبياتهم كان يتوقد بدم أولئك الأبرياء؛ في الوقت  
الذي كان يعبر عن ثقافة الموت والدمار والوحشية التي اتصف بها العدو  
الصهيوني الهنجي... إنه عدو لا يعيش إلا على القتل والدمار والاعتصاب؛ إنه  
يتلذذ برؤية الضحايا والأشلاء المنثورة هنا وهناك... فأحداث غزة الدامية  
تجدرت في مشاعر الأدباء وطفقوا يستشعرونها بكل أمل وحرقة، وينطلقون بها  
إلى آفاق الثأر... وهاهو ذا هارون هاشم رشيد يقول من قصيدة له<sup>(١)</sup>:

|                          |                             |
|--------------------------|-----------------------------|
| دعهم يعيشون في خسة       | ويرمون بالنار ما يقدر       |
| دعهم يصيدون أطفالنا      | وأشياخنا إنهم مجرمون        |
| مدينتنا لن تسيل الدموع   | فهذي الدماء حياة الجموع     |
| وهذي المشاعل نور السبيل  | سبيل الإياب ودرب الرجوع     |
| وهذي الضحايا نداء النضال | وزمجرة الثأر ملء الضلوع     |
| مدينتنا يا منار السنين   | ويا مشرق الحق في كل حين     |
| مدينتنا في غدٍ ثأرين     | ليافا وحيفا ودير ياسين      |
| سنرسم بالدم العربي       | طريقاً على الشوك فوق الصعاب |

(١) جريدة الثورة - العدد ١٣٨٠٥ - الأربعاء ٧ / ١ / ٢٠٠٩ م.

فذاكرة شاعرنا وذاكرة أدباء العربية عالقة بأسماء من غزوا فلسطين وارتكبوا فيها مجازرهم الوحشية لكنهم اندحروا خاسئين منهزمين دون تحقيق أطماعهم، فهم يتذكرون مقاومتها التاريخية أيام صلاح الدين ولاسيما معركته في حطين (١١٨٧م)، ولا ينسون زحف نابليون على أسوار عكا وتوليه الأدبار (١٨٩٨م) وما برحوا يتحدثون عن الانتداب البريطاني الذي كبل أمتهم بالكيان الصهيوني الاستيطاني منذ نكبة (١٩٤٨م) وما زال يغيث في فلسطين فساداً وإفساداً حتى اليوم... بيد أنه سيرتد خاسئاً مهزوماً... فالصهاينة - في عدوانهم الجديد - كانوا يعتقدون بأن مجازرهم الدموية الوحشية في غزة ستجعل أهلها يرفعون الرايات البيض استسلاماً وذللاً، ولم يكونوا مدركين أن غزة ستحرق من غزاها أو تأمر عليها، أو جبن دونها. فغزة ستتصر في معركتها وستتصفي على العدو مهما كانت مجازره همجية، لأنها استعصت على الذل والاستسلام والموت البطيء الذي فرض عليها بحصار طويل منذ ما يزيد على سنة ونصف في (١٤ / ٦ / ٢٠٠٧م)، ثم جرى إغلاق كامل للمعابر منذ (١٤ / ١١ / ٢٠٠٨م). وهذا كله ما عبر عنه الشاعر صالح هواري، ومما قاله<sup>(١)</sup>:

لمعراجك الوطني جلالته

في دمي

أنحني الآن يا غزة الحب

كم زورقاً من دم البرق

يلزمني

لأخيظ لك الشمس

تاجاً على رأس عكا وحيفا

إلى الكرنفال الفدائي ننضم

---

(١) جريدة الثورة - العدد - ١٣٨١٦ - ١٨ / ١ / ٢٠٠٩م.

ذاك هو العشق نقطفه

من فم الموت قطعاً

لهم كل هذي الجنازير

تمشي

على جثث الورد ذعراً

وخوفاً

لنا جبهة الشمس نحرثها

بالعصافير رفاً فرفا

تبارك شعبي بغزة ضحى

وكفى ووفى

وهاهو ينزف

تحت الحصار ثلثا يجفا

فهذه القصيدة كانت زاخرة بالعناصر الفنية المدهشة (الزورق، دم البرق؛ خياطة الشمس، قطف العشق) وهي عناصر تجسد رمزية الثورة والمقاومة فتضيء ما في داخل النفس من توقد وثبات لرد همجية الصهاينة الذين يدمرون الحياة بدباباتهم التي تمشي على جثث الورد... أو لنقل جثث الأطفال الذين كانوا بعمر الورد تفتحاً ونضارة... ثم يأتي المقطع الأخير ليبرد فيه على الحصار بالمقاومة التي تزهو بقيم التضحية المباركة.

فإذا كان الصهاينة قد تغدّوا بسيرة يوشع وأسفار الحقد والكراهية لبني الإنسان، وربّوا أطفالهم على ذلك، وصمموا على طغيانهم؛ وإطفاء نور الحياة في أطفال غزة... فإنهم لم يكونوا يعلمون أن هؤلاء الأطفال دفنوا كل نفايات القهر والاحتلال والاستسلام والخنوع؛ ولم يعودوا يخشون

قنابلهم الفتاكة والحارقة والمحرمة دولياً؛ فقد كان جسمهم العاري وحيداً  
يقاتل ويقاقل لينتصر في إرادة الصمود والثبات في الأرض التي أريد له أن  
يقتلع منها... فكل حزن ومأساة ستولد كبرياء وعظمة وحرية. وهذا  
ما كان قد تنبه له نزار قباني ذات يوم في (منشورات فدائية). فالأطفال لا  
يعيشون على تخوم الحياة، ولا يفتربون عن الفعل المقاوم، بل يحملون في  
ذواتهم مهارة الانتفاض على القيد والتحرر منه ومما قاله<sup>(١)</sup>:

للحزن أولاد سيكبرون

للوجع الطويل، أولاد سيكبرون

لن قتلتم في فلسطين؛ صغار سوف يكبرون

للأرض... للحرارة... للأبواب... أولاد سيكبرون

وهؤلاء كلهم... تجمعوا منذ ثلاثين سنة

في غرف التحقيق... في مراكز البوليس... في السجون

تجمعوا كالدمع في العيون...

وهؤلاء كلهم..

في أي... أي لحظة

من كل أبواب فلسطين سيدخلون...

ولعل أهم ما يميز هذه القصيدة أن كل عبارة فيها تتضمن شحنة  
ثائرة ومحرضة على تجاوز الواقع البائس الذي عجز الكبار عن تغييره.

فإذا كنا نبكي ونحزن وتفيض جراحاتنا غيضاً لما يرتكبه السفاحون  
المتوحشون الصهاينة من إبادة تطال الأبرياء والنساء الخادرات والشيوخ  
الذين أقعدهم الزمن الطويل... فإن الأدباء والكتاب والصحفيين وأمثالهم

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة - (منشورات فدائية) مج ٣ / ١٨٤.



كانوا يكتبون قصائدهم ويقصون حكاياتهم وينقلون مشاهد المجازر التي تنفذها آلة الإجرام الصهيوني ليلاً، وقد كشف النهار عن هول بشاعتها بحق الإنسانية البريئة. فالشاعر فايز حمدان يحدثنا عن ذلك ويكشف الخداع الصهيوني حين قرر إيقاف قصفه الهمجي للمدنيين الأبرياء لمدة ثلاث ساعات يومياً، بهدف إنساني - كما زعم قادة العدو - ويقدم لنا وصفاً حياً وواقعياً في طريقة فنية تؤكد الهمجية المتوحشة لأولئك المجرمين... فالذهول لهول المساة، وسيلان الدم الأحمر؛ يولد في النفس مشاعر فياضة يزداد تأثيرها وحجمها.... ويتعالى البكاء الممتد في المآقي على أولئك الأطفال الأبرياء الذين ناموا نوماً أبدياً.

ومن ثم يصبح العمل الفني المقاوم في تصوير المشهد المأساوي زاخراً بالدلالات التي ترتقي كلما ارتقى حجم الموت المصوب طهارة. ومما قاله<sup>(١)</sup>:

### توقفت المجزرة

ثلاث ساعات فقط

توقف القصف ثلاث ساعات

الموت والذهول والسواد لم يتوقف

بقع الدم مازالت حمراء طازجة

المقابر باتساع

توقف القصف

أمي وأبي وأخي

قلوبهم مازالت أيضاً متوقفة

الأطفال عيونهم مغمضة

نائمون إلى الأبد

---

(١) جريدة تشرين العدد ١٠٣٩٣ - دمشق - ٢٠ / ١ / ٢٠٠٩م).

## توقفت المذبحة لساعات

البكاء لم يتوقف

عيوني من يوقظها

... كان الأدباء يتحدثون عن زمن الاحتراق بدهشة الدهشة المفارقة  
لكل منطق وعقل، وقد أوغل الألم والحزن في نفوسهم مما يشاهدونه من  
هول المجازر الوحشية كما عبر عنه الشاعر محمد حسن العلي<sup>(١)</sup>:

قلبي بغزة فيه الجمر يتقد

نيرانه استعرت من هول ما يجد

قلبي بغزة أطفأل تمزقهم

مخالب الغدر... مع أحلامهم ولدوا

خطب ألم فأدمى القلب من غصص

لم يستطع حملها لب ولا خلد

هنا دمار... هنا موت، هنا ألم

ويلطم الزهر في ليمونها الكمد

هنا شهيد وأشلاء له... وهنا

طفل يفتش عن أهل... فلا يجد

يصلون ناراً... ونار الشامتين نظى

وذنبهم عند قومي أنهم صمدوا

نيرون أشعل نار الحقد فانصرفوا

لم يطفئوا النار... بل من نفضهم تقد!!

---

(١) جريدة تشرين - العدد ١٠٣٨٥ - ١٢/١/٢٠٠٩م.

وعليه فإن دفاتر غزة امتلأت بمواقف الأدباء والكتاب وأدبهم المعبر عن بطولات أبنائها وعظمة تضحياتهم، ومعجزة صمودهم وصبرهم... كان كل واحد منهم يواكب روح العزة المقاومة ليل نهار، وقد أيقن بأن النصر حليف الأحرار الثابتين في أرضهم، ولن تستطيع الآلة الهمجية الصهيونية اقتلاعهم منها...

فغزة هاشم بن عبد مناف كانت النبض الحارق للصهاينة، وكانت الجرح النازف للعرب، وكانت الشوكة الحادة للأعراب الذين نافقوا وخادعوا، ولاموا وعتبوا... وقد فضحت المنافقين والخائبين والمرتجفين والمتصهينين؛ والمتوحشين الصهاينة الذين ظنوا أن إحراقها وتدميرها خلال مدة (٢٣) يوماً سوف يزيلها عن الأرض... ونسوا جميعاً قراءة التاريخ المجيد لشعب غزة البطل إرادة وصموداً..

وقد حدثنا سميح القاسم ذات يوم عن أولئك الذين خذلوا قضيتهم المركزية، ومضوا في عملية السلام المزعوم، دون أن يأبهوا لما يجري في فلسطين من مأس؛ وجرائم... ما يؤكد أن هذه القصيدة تؤصل لعمق الرؤية التي تتألق بالصورة الشعرية التي تتناوب بين الواقع المتخيل وبين طاقة الإيحاء المعبر عن ذات مكلومة بالواقع العربي البائس. ومما قاله<sup>(١)</sup>:

سقطت جميع الأقنعة ...

سقطت جميع الأقنعة ...

سقطت فأماً رايتي تبقى

وكأسي المترعة

أو جثتي والزوبعة

---

(١) جريدة الثورة - العدد ١٣٨١٥ - ١٧ / ١ / ٢٠٠٩ م.

سقطت جميع الأقمعة  
سقطت قشور الماس عن عينيك  
يا رجلاً يصول بلا رجولته  
يا جارفاً للموت أبناء القبيلة  
سقطت تماثيل الرخام  
سقطت دموعك يا تماسيح التواريخ  
الطويلة

ويبدو أن حفنة من الأنظمة العربية الرسمية لم تغير مواقفها ومواقفها؛ وظلت تكيّد لأمتها، وتزعم أنها تقف معها كلما دهمها خطب.. ونرى أن ما جرى في الأمس و ما يجري اليوم من الأنظمة العربية لا يختلف كثيراً . وهذا ما تجلّى في العدوان الوحشي الصهيوني على غزة وعبر عنه الأدباء في مدوناتهم السحرية التي سعت إلى تشكيل الرؤية المعبرة عن واقع مرّ وبشع، وما زال يتفاقم لإصابته بمعضلات سياسية واجتماعية وثقافية ... ما يشي بأن أي نص يحمل مثل هذا المضمون يجسد رسالة مليئة بالإشارات التاريخية والفكرية؛ والخلقية في تناص مثير بين الماضي والحاضر... ما يعني أن النص - بهذا المحتوى - حالة وعي وتذكر لكل ما يلوح لصاحبه، فيجعله يصرخ بقوة الانفعال، ودوافع الرفض الصريح لكل أنماط الانحراف عن الحق والحقيقة... ما يؤكّد أن الأديب يواجه حالة الموت السريري لبعض المواقف المرعبة والمنهزمة، ليجرّ في حالة التوق إلى التطهر وغسل الروح من أوضارها. لذلك يخاطب د. علي سليمان هذه الأنظمة العربية التي ارتجفت في مساندة أهل غزة قائلاً<sup>(١)</sup>:

---

(١) جريدة تشرين - العدد ١٠٣٩٠ - ١٧ / ١ / ٢٠٠٩ م.

يكشف ضوء الدم في غزة  
أقنعة الردة  
يكشف كم من عبد الله بن سلول  
كم من قابيل يسكننا  
يكشف أن وراء جنود الروم  
جنوداً منا  
\* \* \*

يا غزة  
دعك من الموتى  
دعك من الأحياء الأموات  
فلن يوقظهم صبح  
لن يوقظهم صيحات الثكلى  
لن يوقظهم ضوء الأجساد المحروقة  
والأشلاء المنتورة فوق الأنقاض  
لن يوقظهم صيحات الحرية  
لن يوقظهم ضوء الكلمات

فهذه القصيدة تنتمي إلى فعل تحريضي ثوري يستند إلى السخرية من موقف الأنظمة المتخاذلة، والمتردة في نصره أولئك المقاومين. لهذا فإن تكرار اللازمة (لن يوقظهم...) يؤدي إلى الشرح والتعليل... ما يؤكد أن القصيدة تنمو في معماريتها ودلالاتها من الداخل...

إذاً، كان النظام العربي الرسمي والعالم المتحضر المنافق يشاهدان بدم بارد وقائع الإعدام الجماعي لأبشع جريمة جماعية في التاريخ الإنساني وهم

يرقبون استسلام غزة، أو موتها... وكان المنافقون والمخادعون والمرتجعون ينتظرون بفارغ الصبر لحظة هزيمة غزة... ولكن خاب ظنهم إذ وقف الأبطال يحمونها من كل أذى، ويردون كيدهم إلى نحورهم؛ وهذا ما عبر عنه الشاعر محمد عباس علي في قصيدته (من يحمي الديار) ومنها:

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| حماها بأهداب العيون حُماتها    | رجال، عتاة أرقّتهم شكّاتها    |
| تنادوا. فكانوا رغم بطش غزاتهم  | مقاومةً عزّت على الوصف ذاتها  |
| يصولون في الجلى وملاء قلوبهم   | ثباتٌ ولو هزّتهم زفرائها      |
| يصدّون عن أبواب غزّة هجمةً     | تناهت بها من حقدّها جهالاتها  |
| أيا شعبنا الجبار.. هدّم حصونهم | وحطّم صياصياً... تمادى غواتها |
| تخاذل عنك المارقون خيانةً      | وقد فضحت أدوارهم سيئاتها      |
| أولئك أتباع الشياطين منهجاً    | ولو ملأت أجزانهم عبراتها      |

فالشاعر يشق عنان الواقع ليستعير منه صورته المؤثرة في الوقت الذي يختزن لغة تراثية تتجاوز حالة الألم العظيم الذي شعر به نتيجة بؤس المارقين... لهذا ركز على الوصف الحي للبطولات التي جسّدها أهلنا في غزة (مقاومة عزت... يصولون في الجلى... أيا شعبنا الجبار هدّم حصونهم...). ولعل صورته الشعرية التي استتدت إلى جوهر النموذج النضالي الذي تشبث بالأرض وضحّى من أجلها هي التي كشفت أسلوب نهج المارقين والشياطين؛ في شكل شعري يعتمد التضاد في الموقف والرؤية... وحين اعتمد هذه الثنائية الضدية في العبارة والصورة كان ينشد الخلاص لأمتة كلها، وهو خلاص يبدأ من بوابة غزة.

فغزة هاشم كانت اللؤلؤة التي لمعت في عيون الأدباء والشعراء فتغنوا ببطولة قوى المقاومة، وصلابة إرادة شعبها، وقد فتح عينيه على النصر، ما جعل الشاعر الدكتور محمد الخوص يبدأ قصيدته بالبشرى التي تحققت على

يد صلاح الدين الأيوبي بتحرير القدس.. وكأن الشاعر يجد في بطولات غزة مفتاحاً لحرية القدس وفلسطين كلها... فاستعادة التاريخ البطولي ومزجه بالحاضر النضالي المقاوم لأبناء غزة يعني فتحاً جديداً للمستقبل العربي، اللهم إذا تجاوزنا الفعل الإجرامي لحرب الفرنجة وعدوان الصهاينة... وكل من هذا وذلك يهدد الوجود العربي ونهوضه. فالإسقاط الدلالي للتاريخ على الحاضر؛ لا يكتفي بالوقوف عند التناص الفكري، وإنما يدفعنا دفعاً إلى رؤية الشاعر، وتعميق الحديث عن النصر المحقق. ومما قاله:<sup>(١)</sup>

|                             |                                |
|-----------------------------|--------------------------------|
| أبشر صلاح الدين حان الموعد  | لن نترك القدس الشريف يُهوّد    |
| لن نترك التاريخ يبكي راجياً | من أجل أولى القبليتين استشهدوا |
| سنعيد حطين التي فتحت لنا    | باب الخلود فهل علينا تشهد      |
| انظر تر الزيتون فوق غصونه   | أضحى قنابل كم تقيم وتقع        |
| وتحوّل الأطفال من فرط الأسى | مثل المدافع كل يوم ترعد        |

وقد حاكى الشاعر في هذه الأبيات ما قاله عمر أبو ريشة في قصيدته (خالد بن الوليد).

فإذا كان توضيح الواضحات من المشكلات فلا ضير علينا أن نؤكد مرة بعد مرة أن الأدباء والكتاب الشرفاء الأحرار قد رفضوا كل أشكال الإهانة والاستكانة والذل والظلم والاحتلال... وراحوا ينشدون نصوصهم لأكاليل النصر القادمة ويتفاخرون ببطولة الشهداء الذين طاولت رؤوسهم عنان السماء فاكتسبوا الخلود، لأنهم حققوا لأمتهم المجد والعزة. فالأدباء والكتاب كانوا مثل أهل غزة يرقبون النصر الآتي وعن ذلك صدروا في قصائدهم ومقالاتهم... ولا شيء أدل على هذا مما قاله فيصل علي صقر<sup>(٢)</sup>:

(١) جريدة البعث - العدد ١٣٥٨٥ - ١٤ / ١ / ٢٠٠٩ م.

(٢) جريدة تشرين - العدد ١٠٣٩٢ - ١٩ / ١ / ٢٠٠٩ م.

سأكتب بالدم  
تاريخ غزة  
أسطورة الصمود  
يا حرف نور  
على جبهة الشمس  
نضجاً وعزة  
سأكتب عنك  
ملاحم مجد  
بطولة شعب  
يجل الشهادة  
فمنك التحدي  
ومنك الشموخ  
ومنك الولادة  
وأطفالك الأبرياء  
قرايين حب  
لصبح سيعبر  
في ضفة العمر  
على غصن زيتونة  
حاملة  
فهذي البطولة  
هذا التحدي  
سيقطع تلك اليد الأثمة



فالنص مشحون بالصور الإبداعية المتوهجة بقيم البطولة والشهادة، والولادة والحرية... وهو مفعم بتجليات التواصل مع الماضي والحاضر والثقة بالمستقبل وبانتصار شعبنا في غزة.

ولو تأمل المرء مطلع القصيدة وتدرجها البنائي لأيقن أن الشاعر ابتعد عن التقرير حين راح يؤكد الصمود الأسطوري الذي أصبح حرفاً من النور المكتوب على جبهة شمس الحرية والمجد... وهو فعل أسطوري ممتد إلى قصة القربان والفضاء المشهورة في قصة (إسماعيل - عليه السلام) من خلال الولادة الجديدة للحكاية على يد أطفال غزة الذين أصبحوا قرايين للوطن الذي يتكلم جبينه بالنصر القادم. ولهذا فإن الشاعر يشدد على ولادة البطولة والتحدي والشموخ في مستويات عدة من الأبعاد التعبيرية الموحية والحاملة بقطع يد الصهاينة الآثمة... وما إتباع الأطفال الأبرياء بالولادة التي قامت بها غزة الأم إلا ولادة لفجر الانتصار والحرية.

ويؤكد الشاعر فرحان الخطيب انتصار غزة دون مرأى على الرغم من أنها تتعمد بالدم والألم... وهي باقية بقاء الزمن والحياة ومما قاله في (غزة لن تموت)<sup>(١)</sup>:

وغزة التي رأيت وجهها

تخضبت بالدم.

وغزة التي صحونا من وفائها

قصيدة الألم

وغزة التي تضيء دربنا من زيتها

---

(١) جريدة تشرين - العدد ١٠٣٩٣ - ٢٠ / ١ / ٢٠٠٩ م.

وغزة التي يثور مجدنا من بيتها

لم تستطع بالقهر أن تموت

لم تستطع غزة أن تموت

وفي غد

على نشيد الله من نشيدكم ...

سيرحل الطاغوت ... سيهزم الطاغوت

فالشاعر كان مغروساً بعروق الكلمة، وماس الجملة الشعرية التي تتسع في فضاء اللغة التي عبرت عن رحلة الشوق إلى الحرية والخلاص من السأم والتقرز مما يراه من جرائم ترتكب بحق شعبه... ينطلق من ذاتية غزة المتفردة في التضحية والصمود ما جعله ينحني أمام بطولاتها... ويستبشر بالنصر الآتي.

وقد وقف أدباء العالم الأحرار مع غزة البطلة كما فعل الكاتب البيروني الشهير (ماريو بارغاس يوسا) في مقاله المنشور في صحيفة (البايس) في مدريد بعنوان (الموت في غزة). وقد تحدث الكاتب عن تجربته الذاتية في غزة ومما قاله: (شاهدت الأمور بأم عيني وشعرت بالاشمئزاز والتمرد على البؤس الفظيع الذي لا يوصف؛ شاهدت القمع لأناس بلا عمل ولا مستقبل...)

كانت تعتمل في نفوس أبناء غزة عوامل البؤس والقهر والظلم الشرس للمحتل الصهيوني حتى غدا الفلسطينيون صورة للمأساة البشعة... ثم غدوا مثلاً حياً للمجازر الجماعية التي يرتكبها القتلة العنصريون تحت سمع العالم وبصره؛ إنهم يرتكبون محرقة قبيحة، وهم الذين عانوا من محرقة النازية كما يزعمون... وهذا ما أثار الروائية البوسنية (ملكة صالح

بك بوسناوي) فاندفعت لكتابة رواية (يا فلسطين) في (١٢) جزءاً تتحدث فيها عن ذلك كله ابتداء من رفض السلطان العثماني عبد الحميد تسليم فلسطين منذ مطلع القرن العشرين حتى نهاية الانتفاضة الأولى (١٩٨٧م) ... ثم أعلنت من جديد إبان العدوان الصهيوني على غزة تنديدها بصمت المجتمع الدولي على جرائم الصهاينة وقادتهم؛ وطالبت بجرهم كمجرمي حرب إلى العدالة، وأثت على موقف (فنزويلا وبوليفيا) بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الكيان الصهيوني. فكانت واحدة من أدباء الدنيا الشرفاء الذين وقفوا إلى جانب المظلومين....

وفي هذا المقام لا يسعنا إلا أن نشير إلى أدب المقاومة لدى بعض أدباء العالم<sup>(١)</sup>، ولاسيما ممن ناصرُوا القضية الفلسطينية أمثال الشاعر السوفييتي (ستانيسلاف كونايف) الذي حاول أن ينتزع حرية فلسطين، وإعادتها إلى أصحابها، وفق ما رآه في عيني فتاة فلسطينية عقدت العزم على ذلك إذ قال في قصيدة بعنوان (فلسطينية)<sup>(٢)</sup>:

في الرحاب العربية

لا في غابات أنصارنا الشماليه

رأيت في عينين لوزيتين

غضباً يعتز به الإنسان

يا فلسطينية

عينك تتقدان بالغضب

---

(١) انظر المقاومة - منتخبات شعرية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق سلسلة الكتاب الشهري

- رقم ٢ - تشرين الثاني ٢٠٠٦م وثقافة المقاومة في الآداب والفنون ١٩٢.

(٢) مختارات من الشعر السوفييتي - ترجمة عبد الرحمن الخميسي وآخرين - دار (رادوغا) -

موسكو - ١٩٨٥م - ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

وأنت محروقة من الأسرة والديار  
وراحتا يديك قائمتان ... من البندقية  
فولاذ البندقية الرشاشة  
ليس لأصابع الإناث الرقيقة  
ولكنك تتطلعين إلى رحاب الصحراء  
أفهم حماسك ... بلا كلمات  
إبان الحرب  
وأنا مثلك أعرف ثمن الحرية

هكذا تلاً الألب المقوم متجاوباً مع الدم والمقاومة في ظلام الزمن  
الردى الذى تباع فى الأمة من بعض حكامها فى سوق النخاسة... وأعلن  
للدنيا أن الشهداء لم يموتوا، كانت دماؤهم تتساءل عن ضوء البرق القادم  
من وراء الأفق، وهي تتوهج على جناح الكلمة المقاومة التي تهزم دموع  
القلق، وبكاء المبحوحين... فى الوقت الذى تنتصر فيه على كل من دس  
رأسه فى التراب ذلاً وصغاراً.

ومن ثم سنكتب فى دفاترنا - مستقبلاً - أن المبدعين والمثقفين  
سجلوا مشاعرهم الصادقة والنبيلة بمداد من نور؛ آمنوا بثقافة الكرامة،  
وهزموا المعادلات السوداء والمستسلمة، وانتصروا على اللحظة الراهنة فى  
أدب إنسانى مقاوم لكل أشكال التوحش والقتل؛ وهم يرون جثث الشهداء  
المنثورة فى أرض غزة هاشم الطاهرة. وسنكتب فى دفاترنا أن أولئك  
المبدعين كانوا يسعون إلى تعديل الميزان المقلوب فى حياة الناس ليثبتوا  
الوعى بالحقيقة والعدالة والدعوة إلى التآمل، ولا سيما تأمل الفعل  
الثورى المقاوم بوصفه السبيل إلى تحرير الذات والأرض، وإلى حراسة

القيم الخلقية السامية... كان الأدباء والكتاب يجهدون في انتشار النفس العربية من حالات الشجب والتنديد والصراخ إلى حالة الفعل الحقيقي مشاركةً بالكلمة والموقف، والنفس. فظهرت تجليات الفعل المقاوم بأنماط كثيرة، ترددت على أبجدية الكلمات ومفردات القصائد... فارتبطت بالشعر الوطني بمثل ما ارتبطت بالشعر القومي والإنساني فكانت صدىً لأزلية الصحو الفاعلة والإرادة القومية في الدفاع عن الذات الإنسانية والقيم الفاضلة... فشعر المقاومة شعر التوهج الذي يستتطق أطياف ضوء المستقبل... ما أدى إلى نشوء قصيدة متخصصة بالمقاومة ومعانيها دون أي شيء آخر وأياً كان اتصالها بالقصيدة الوطنية أو القومية... أو السياسية... فضلاً عن أن ملامح الأدب المقاوم إنما هو رمز للأدب المقاوم في العالم في تجلياته؛ وملامحه الكبرى؛ مهما كانت الخصوصية التي يتصف بها سواء تعلق بفلسطين؛ أم تعلق بأزمات الأمة الكبرى وحركات التحرر الوطنية فيها. ولعل ذلك كله ينهض به الفصل الثاني.



## الفصل الثاني

---

### تجليات الأدب المقاوم

#### توطئة

- ١ - تجليات الانتماء
- ٢ - تجليات وحدة الموقف والمصير
- ٣ - تجليات مقاومة الهزيمة والانكسار
- ٤ - تجليات الصمود والانتصار





## تجليات الأدب المقاوم

### توطئة

انبثقت مقاومة الاحتلال الخارجي بكل صوره قديماً وحديثاً؛ وعلى كل صعيد في كل زمان ومكان... ولما ظهرت المقاومة الوطنية العربية محدودة في كل قطر لإخراج المستعمر وطرده فإنها تجلت في مقاومة الكيان الصهيوني الذي اغتصب فلسطين، وأعلن كيانه فيها عام النكبة (١٩٤٨م) مقاومة عربية شاملة، وبرزت قضية فلسطين قضية العرب جميعاً منذ ذلك العام... وصارت مرتكز الصراع العربي - الصهيوني...

وفي صميم هذا الوعي كان الأدب المقاوم يدور حول هذه القضية؛ ويقدم كل عون للبندقية... في الوقت الذي كان يعمل على تأثيل صورة الوعي بالهوية القومية من دون أن يحيف على الانتماء الوطني... ومن ثم أبرز الأدب المقاوم ماهية تحالف الكيان الصهيوني مع قوى الشر والإرهاب؛ والقتل والهيمنة والغطرسة... بينما ركز على جوهر تحالف المقاومين الأبطال مع الإرادة والصبر والتصميم على نيل الحرية والاستقلال مهما كانت التضحيات جسيمة... فمن دافع عن كرامة الإنسان وحرية الوطن والأمة، والتزم بحراسة قيمها الخيرية عليه أن يبذل من أجلها كل غالٍ ورخيص... فالأحزان التي تلفه يجب ألا تضعفه وتهدم إرادته... ويجب ألا تتثيه عن هدفه... بل عليه أن يطور أدواته،

مهما كانت عظمة الأزمات التي يتعرض لها قاسية كما حصل في نكبة (١٩٤٨م) ونكسة (١٩٦٧م)...

وعلى الأديب المقاوم أن يستجيب للذات الإبداعية الموحدة في مواجهة التمزيق والارتجاف والانقسام الحاصل في حياة الأمة... ومهما كان هول الخيبة والمرارة من العملاء والخونة والمفسدين الفاسدين، أي على الأديب أن يحمل منارة الوعي وبث روح الثبات والصبر والتمرد، ثم الثورة بالكلمة والنفوس...

وبناء على ما تقدم فهذا الفصل يتصدى لتجليات الأدب المقاوم مركزاً على القضية العربية الأولى، لأنها هي المبتدأ والخروج والمنتهى للأمة بأجمعها وبوصفها غدت رمزاً للمقاومة والفضاء في العالم كله.. فالاحتلال الصهيوني لفلسطين لم يكتف - وفق ما حدث حتى الآن - باستباحة العربي في فلسطين، وتصفية حقوقه، واستئصاله من أرضه، واجتثاثه من جذوره... وإنما يهدف إلى استباحة حقوق العربي والمسلم، واغتتيال حقوق الإنسان أينما كان وفق المشروع الصهيوني الاستعماري المدعوم من الغرب والمحروس من دوله مادياً ومعنوياً.

## ١ - تجليات الانتماء

### - الانتماء إلى الهوية:

تنشأ الهوية من خصائص مشتركة لجماعة من البشر؛ ولعل هذه الخصائص تتجلى بعناصر شتى اتفقت عليها هذه الجماعة كإبراً عن كابر منذ قديم الزمان...

فقد ورث العرب عن أجدادهم الأوائل تاريخاً وتراثاً ولغة واحدة وثقافة متجانسة، وعاشوا آلاماً واحدة وعقدوا آمالهم في التطلع إلى العيش المشترك على هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من الخليج العربي حتى المحيط الأطلسي، ما أدى إلى نشوء عادات وتقاليد متماثلة في المأكّل والملبس والشراب و... فالهوية / العروبة كانت تزهو باللقاء الحضاري الممتد في التاريخ والجغرافية... ثم جاءت العقيدة الإسلامية فأكدت كبرى اليقينيّات الثابتة، إذا تجاهلنا اعتدادهم بنسب واحد ينتهي إلى عدنان وقحطان...

وتأسيساً على هذه الهوية كانوا يستشعرون الانتماء الأصيل ويدافعون عنه بوصفه جوهراً ثابتاً لا يشوبه شك أو انحراف...

ولما نجحت الأقطار العربية في انتزاع حريتها وسيادتها من الدول المستعمرة، وتخلصت من الإحباطات الخارجية بدأت تبني الدولة الوطنية من دون أن يغيب عنها العمق القومي، بوصف العروبة روحاً ثابتة متأصلة في الذات الفردية والجمعية للعرب أينما كانوا وكانت دولهم...

ومن ثم أخذت العروبة ترقى معنوياً وروحياً شيئاً فشيئاً، وتتصاعد لدى الحركات القومية بفعل الظروف السياسية والتيارات الفكرية

والإيديولوجية.. ما جعل الفكرة القومية في بعض الأقطار كبلاد الشام والعراق والكويت أعلى وتيرة من غيرها... وهي البلاد التي نمت فيها الدعوة إلى الوحدة العربية، والمناداة بها مشروعاً نهضوياً عربياً.

أي إن العروبة كانت في بداية القرن العشرين أساساً لليقظة العربية الجامعة لدى المفكرين العرب؛ ثم غدت - من بعد - عامل توحيد ونهوض وارتقاء وتحرر لدى تلك الحركات... فالعروبة تحرر العربي من الولاءات الضيقة عشائرياً وعائلياً ومذهبياً وطائفيّاً؛ في الوقت الذي تكفل فيه حرية الاعتقاد والعبادة والتفكير والرأي والتعبير..

ولهذا كله ارتبط الأدباء بها ودافعوا عنها بكل قوة وجرأة؛ وهي التي حركتهم تجاه قضيتهم المركزية فلسطين؛ أيّاً كان الإخلاص للانتماء الوطني<sup>(١)</sup>... لأن هذا الانتماء لم يكن مناقضاً أو معارضاً للانتماء القومي. فالعلاقة التي ربطت الفلسطينيين بالهوية والوطن هي ذاتها التي ربطت الأدباء العرب بفلسطين؛ بوصفها جزءاً أصيلاً من الأرض العربية؛ فضلاً عن أن تاريخها وثقافتها هي ثقافة كل واحد فيهم وتاريخه... وهكذا كانت رؤيتهم لأي أرض عربية أيّاً كانت ولادة الأديب في لبنان أم في مصر أم المغرب...

ولذا فالأدباء والكتاب ينتشون وهم يتحدثون عن العروبة؛ وقد صارت عندهم وسيلة مقاومة للدفاع عن الذات الوطنية إذا ما تعرضت للخطر الخارجي... ومن ثم صرخ إبراهيم اليازجي عالياً حين أعدم جمال باشا بعض المفكرين والمناضلين العرب في ساحات دمشق وبيروت فقال قصيدته المشهورة ذات المطلع<sup>(٢)</sup>:

---

(١) انظر وحدة الوجدان العربي (الشاعر والأرض) ١١ - ١٣ - د. حسين جمعة - مجلة الكاتب

العربي - العدد ٧٥ - الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٧م.

(٢) المقاومة - (منتخبات شعرية) - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٦ - ص ٨.

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب  
الله أكبر ما هذا المنام فقد شكاكم المهدي واشتاقكم الترب

فالأحزان تتجدد في كل قطر عربي ولا منقذ منها إلا استغاثة بالعروبة  
الجامعة الموحدة وفق ما قال خير الدين الزركلي<sup>(١)</sup>:

نعى نادب العرب شبانها فجدد بالنعى أحزانها

أما الشاعر الكبير سليمان العيسى فما زال يغني للعروبة منذ ستين  
سنة جاعلاً منها قضيته الكبرى ما يعني أنه شاعر المبدأ الذي لا يتخلى  
عنه؛ بوصفه عاشقاً للعروبة، دافعاً عنها كل المنحرفين؛ باذلاً نفسه في  
سبيلها إذ يقول<sup>(٢)</sup>:

لست شاعراً  
أرض الآباء والأجداد؛ أم الشعر  
وخالقة الشعراء  
تريني شيئاً آخر...  
تريدني حلماً أصلب من الحقيقة  
وأكبر من الواقع  
وأبعد من حدود الجثة التي تتحرك  
ما بين المحيط والخليج...  
تريدني عربياً... يبحث عن هويته...  
عن جوهر وجوده

(١) ديوان خير الدين الزركلي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٠ - ص ١٦٤.

(٢) سليمان العيسى في نبرته الهادئة - ملكة أبيض - ص ٢٨ - مجلة الثقافة - دمشق -

تشرين الثاني - ٢٠٠٧ م.

عن جذوره العميقة في أرضه

يبحث عن أمته ...

نعم عن أمته العربية .

فبلاد العُرب - أينما كانت - هي للعرب جميعاً كما أثبتته الزعيم  
الوطني السوري فخري البارودي حين أكد الهوية الواحدة لأبنائها، في نشيده  
المعروف الذي رددته حناجر شباب الأمة من المحيط إلى الخليج قائلاً:

|                   |                   |
|-------------------|-------------------|
| من الشام لبغدان   | بلاد العرب أوطاني |
| إلى مصر فتطوان    | ومن نجد إلى يمن   |
| ولا حدّ يباعدنا   | فلا دين يفرقنا    |
| بغسان وعبدان      | لسان الضاد يجمعنا |
| سنحيتها وإن دثرت  | لنا مدنية سلفت    |
| دهاة الإنس والجان | ولو في وجهنا وقفت |

فالأدب أبرز بقوة هوية الانتماء إلى العروبة وبث الوعي بها، وطلق يقاوم  
كل أشكال الانحراف عنها، وينبه على مخاطر التمزق والفرقة والتجزئة. واعتمد  
الأدباء اللغة العربية الفصيحة وأحيوها؛ إمعاناً منهم في وحدة الأمة وتغنوا بهذه  
اللغة الشريفة، ورفضوا اللجوء إلى اللغة المحكية المحلية ورأوها خطراً على  
الانتماء العربي المشترك، كما قال حافظ إبراهيم على لسان العربية<sup>(١)</sup>:

أيهجرتني قومي - عفا الله عنهم -

إلى لغة لم تتصل بـرواة

سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى

لعاب الأفاعي في مسيل فرات

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم - دار العودة - بيروت - ٢٥٥/١.

ولذلك يصيح في قصيدة أخرى له متحدثاً عن الشام ومصر، ومما  
قاله فيها<sup>(١)</sup>:

أُمُّ اللُّغَاتِ غِدَاةُ الْفُخْرِ أَمَّهُمَا

وإن سألت عن الأبناء فالعرب

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم

فصافحوها تصافح نفسها العربُ

وحيثما كان الأدب المقاوم يصارع التجزئة والفرقة، ويختار لغته  
الواحدة كان هناك أناس مرجفون، ضائعون، ضالون يدعون إلى الهدم  
والفرقة وإحلال العاميات المحلية محل العربية الفصحى، والأدب الشعبي  
المحلي مكان الأدب العربي الفصيح. وكذلك كانت هناك تيارات سياسية  
معادية للعروبة، أو أنظمة سياسية ضعيفة لما تتحرر من عوامل القهر  
والخوف والتردد، ...

فالأدباء وقفوا بالمرصاد لكل قطيعة تاريخية أو ثقافية أو اجتماعية  
أو سياسية بين أبناء الأمة العربية على الرغم مما فرضه الانتداب  
الأوروبي من حدود مصطنعة بين الدول العربية استناداً إلى اتفاقية  
(سايكس - بيكو - ١٩١٦م) ...

كان الأدباء المناضلون يستشعرون النهضة المشتركة للعرب جميعاً على  
كل الصُّعْد، والمستويات... ما يعني أن العروبة شكلت لديهم جوهرراً حضارياً  
راقياً يزدان بالعقائد والقيم ولا يتعارض معها...

ومن ثم حين كان الواقع العربي مبتلى بالتمزق والجهل والتخلف  
وضعف الأدوات - فضلاً عن ارتباط اقتصاده بعجلة الاقتصاد الغربي؛

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم ٢٦٨/١.

إذا أهملنا ضعف القدرات العسكرية - كانت وحدة الثقافة والأدب  
معوضة عن ذلك...

وحيثما عجزت الحركات القومية عن انتشار الواقع العربي من  
أزماته، ولم تستطع أن تحقق مشروعها الوحدوي، على الرغم من المحاولات  
التي بذلت في هذا المجال كوحدة سورية ومصر في (٢٢/٢/١٩٥٨م) كان  
الأدب المقاوم يقف صامداً قوياً ليقدم الصورة المتألقة التي ترد على حالة  
الانكسار في النفسية العربية من انتكاسة للوحدة أو تراجع للعروبة يحدث  
هنا أو هناك... ولا شيء أدلّ على هذا من مواجهة الهزيمة الكبرى التي  
أصابت الهوية الجامعة للعرب في نكسة (٥/٦/١٩٦٧م)... وهي النكسة التي  
استشعرها الأدب بالتحليل تارة والبكاء تارة أخرى، وبالثأر والمقاومة تارة  
ثالثة... وحين أعلن نزار قباني (وفاة العرب) إثر تلك النكسة كان يبكي عجز  
الهوية العربية عن الصمود أمام شرذم الصهاينة<sup>(١)</sup>، وكان يحرص على إعادة  
بناء هذه الهوية بشكل قوي يفيد من التجربة المرة، ومما قاله من قصيدته  
(هوامش على دفتر النكسة)<sup>(٢)</sup>:

أنعى لكم، يا أصدقائي، اللغة القديمة

والكتب القديمة

أنعى لكم، كلامنا المنقوب كالأحذية القديمة

ومفردات العهر والهجاء والشتيمة...

أنعى لكم...

أنعى لكم نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمة.

---

(١) انظر الأعمال الشعرية الكاملة مجلد ٩/٤٦٣ - ٤٨٠ - منشورات نزار قباني - بيروت -

٢٠٠٢م.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة - مج ٣/٧١.



فهذه القصيدة على مرارتها توحى بثورة كامنة في نفس الشاعر على  
النكسة وعلى الواقع العربي المؤلم، فأراد للعرب ألا يتهالكوا وراء الفرصة  
الضائعة، وأن يوحدوا طريقهم في البناء والتحرر وأن يقفوا صفاً واحداً  
لنصرة فلسطين قولاً وفعلاً، بوصفها قضية العرب الأولى.

وفي صميم هذا الوعي كان الأدب المقاوم يؤكد الروح الأصيلة  
للانتماء إلى العروبة، ويدكي الوعي بها، ويقاوم كل عوامل الفرقة  
والتمزق، وإنهاء أي نمط من القطيعة بين الدول العربية، في الوقت الذي  
يؤكد وجوب تخلص الحركات القومية من التنظير الأجوف للعروبة،  
وأن تجعلها ممارسة ثقافية واجتماعية متأصلة في الذات الجماعية...  
ولاسيما أنها معانقة للتشبث بالأرض / الوطن سواء تمثلت بالقطر أم  
بالوطن العربي كله.

فالأدب المقاوم أدب منتم إلى الهوية التي تؤسس طهارة الانتماء وجمال  
الحيوية والقدرة التي تطوف بالقيم الأصيلة التي يعيش عليها أبناء المجتمع  
وفق ما عبر عنه محمود درويش في قصيدته (سجل أنا عربي)؛ ومنها<sup>(١)</sup>:

سجّل!!

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

وأطفالي ثمانية

وتاسعهم سيأتي بعد صيف!

فهل تغضب؟! -

---

(١) ديوان محمود درويش - دار الحرية للطباعة - بغداد - ٢٠٠٠م - ص ٣٥ - ٣٦.

سجل أنا عربي

ولون الشعر فحميّ

ولون العين بنيّ

وميزاتي:

على رأسي عقال فوق كوفيّه

وكفّي صلبة كالصخر

تخمش من يلامسها

—

سجّل ... برأس الصفحة الأولى

أنا لا أكره الناس

ولا أسطو على أحد

ولكني ... إذا ما جعت

آكل لحم مغتصبي

حذارِ ... حذارِ ... من وجعي

ومن غضبي!!

لهذا فإن هذا الأدب يجسد بعفوية نقية ومباشرة صريحة دلالة حالة الدهشة المعبرة والصدق والإخلاص والسمو في النزوع الإنساني؛ ما يشي بأنه ليس مجرد ثمرة لعداء الآخر الصهيوني وحلفائه، الذين تآمروا على اغتصاب فلسطين، وصمموا جميعاً على تنفيذ المشروع الصهيوني في الهيمنة على الوطن العربي وسرقة خيراته... وإنما هو - أيضاً - ثمرة لكل أشكال مقاومة العدوان الذي يستهدف الوجود والهوية والأرض.

## - الانتماء إلى الأرض (الوطن - الأمة):

أكد الأدب المقاوم في إطار الانتماء إلى الهوية القومية/ العروبة أنه أدب إنساني يعبر عن هويته الحضارية المنفتحة على الرسالات الدينية ومبادئ حقوق الإنسان بعكس ما هي عليه نظرية الحركة الصهيونية المؤمنة بالقتل شريعة لها؛ وباغتصاب أرض الآخر، وتهجيرها منها عنوة وقهراً..

وبناء عليه ندرك السبب الذي جعل الكيان الصهيوني يعتمد منهج القتل الهمجي المنظم أسلوباً له؛ ومن ثم القيام بتهجير العرب من ديارهم، وقذفهم إلى المجهول خارج حدود أرضهم...

لقد زعم أن اغتصاب الأرض واحتلالها بالقوة المسلحة الفتاكة واقتلاع أهلها من أرضهم سيحقق إقامة دولته العنصرية اليهودية. لذلك أذاق العرب مرارة السجن أو النفي والتهجير، أو القتل.

لهذا يشدد الأدب المقاوم على توضيح صورة الصهيوني المجرم الذي اتخذ أسلوب القتل والإبادة الجماعية، وأسلوب التدمير المنهجي طريقاً وحيداً له لتحقيق أهدافه... ما يعني أن الأدب المقاوم يواجه عقلية الكيان الصهيوني العنصرية والمتوحشة، ويعلي من مكانة القيم الإنسانية في التمسك بالوطن والدفاع عن كرامة الإنسان وعدالة قضيته..

فإذا كانت الثقافة فعلاً تراكمياً فإن الأدب المقاوم صورة ساطعة للرد على حالة انكسار الهوية؛ ودعوة صادقة لحراسة القيم وفي طليعتها التمسك بالحرية وبالأرض، أرض الأجداد والآباء<sup>(١)</sup>... وفي هذا المقام الذي أشرنا إليه نسأل: من منا ينسى قصيدة نزار قباني حين قصَّ علينا (قصّة راشيل)؟ ومنها<sup>(٢)</sup>:

(١) انظر وحدة الوجدان العربي (الشاعر والأرض) - ص ١٣ - ١٦.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة مج ١/٣٥٩ - ٣٦٠ ومج ٣/٣١.

من آخر الأرض، من السعير  
جاؤوا إلى موطننا الصغير  
موطننا المسالم الصغير  
فلطخوا ترابنا  
وأعدموا نساءنا  
ويتمّوا أطفالنا  
ولا تزال الأمم المتحدّة  
ولم يزل ميثاقها الخطير  
يبحث في حرية الشعوب  
وحق تقرير المصير

\* \* \*

فليذكر الصغار  
العرب الصغار حيث يوجدون  
من ولدوا منهم ومن سيولدون  
قصة إرهابية مجنده  
يدعونها راشيل  
حلت محل أمي الممدّة  
في أرض بيارتنا الخضراء في الجليل  
أمي أنا الذبيحة المتشّهده  
وليذكر الصغار  
حكاية الأرض التي ضيّعها الكبار  
والأمم المتحدّه

أكتب للصغار  
قصة بئر السبع واللطرون والخليل  
هل يذكر الليمون في الرملة  
في اللد  
وفي الجليل  
أختي التي علقها اليهود في الأصيل  
من شعرها الطويل  
أختي أنا نوار  
أختي أنا الهتيكة الإزار  
\* \* \*

إن تجليات اللوعة المرة لضياح الأرض والكرامة بيد الكبار والأمم المتحدة تمتزج بالشجن الذاتي العميق لحب الأرض... وهو الحب الذي جعله يتخلص من حالة الحزن، ومواجهتها بحالة الفرح بأطفال لا يعرفون الخبث والخداع والخوف والجبن والخيانة... ما يشي بأن موضوعة الحزن بفقدان الأرض المغتصبة تواجه بموضوعة الأمل بعودتها حرة كريمة. ولهذا حرص الشعب الفلسطيني على حق العودة والرجوع إلى فلسطين وخلق لنفسه يوماً سماه يوم الأرض في (١٩٧٦/٣/٣٠م) ووقف العرب قاطبة إلى جانبه. ومن ثم صار حدثاً نوعياً في تاريخ الاحتفال بالأرض بوصفه يوماً وطنياً فلسطينياً وعربياً. ومن هنا تغدو تجليات الحزن على فقدان الأرض أشد وجعاً ورعباً حين يستشعر نزار قباني أنها لن تعود أبداً لأن العرب قد ضيعوها بتمزقهم وخلافاتهم؛ ومما قاله في (هوامش على دفتر النكسة)<sup>(١)</sup>:

(١) الأعمال الشعرية الكاملة - مج ٣/٩٤.

لو أننا لم ندفن الوحدة في التراب  
لو لم نمزق جسمها الطريّ بالحراب  
لو بقيت داخل العيون والأهداب  
لما استباححت لحمنا الكلاب

فقصيدة نزار المقاومة تهجر النبرة الخطائية؛ وتسلك أسلوب السخرية  
المرّة من الواقع المأساوي الذي تعيشه القضية الفلسطينية، ويستحضر فيها  
كل الرموز المثيرة للوجدان العربي.

فالوحدة العربية أيقونة الشاعر التي انكسرت؛ وأرض فلسطين شرفه  
الذي اغتصبه الصهاينة على مرأى من البشرية قاطبة... وهي الأرض التي  
مثلت كينونة الطهر والنقاء، فإذا بشذاذ الآفاق يفتضون شرفها بمساندة  
الأمم المتحدة، والدول العظمى.. ولكنه يعلن للعالم أنها عكا والكرمل  
وحيفا والجليل واللطورون صارت جزءاً من نسيج دمه؛ مثلما صارت كل  
ليمونة في فلسطين تتجذب طفلاً متشبهاً بتلك الأرض؛ فيقول في قصيدته  
(ترصيع بالذهب على سيف دمشق)<sup>(١)</sup>:

صدقَ السيفَ وعَدَه يا بلادي      فالسياسيات كلها أفيون  
نحن عكا ونحن كرمل حيفا      وجبال الجليل واللطورون  
كل ليمونة ستنجب طفلاً      ومحال أن ينتهي الليمون

وبهذا الوعي الذي يحدثنا فيه نزار قباني وأمثاله يتجلى لنا أن  
التشبث بالأرض والدفاع عنها بالكلمة والنفوس ليسا حالة تذكر  
وانفعال، وإنما هي حالة كينونة وهوية أصيلة؛ متجذرة في الزمان  
والمكان والثقافة يدافع عنها أبناءها بكل ما يملكون، ليصبحوا

(١) المرجع السابق - مج ٣/٤٤٢ - ٤٤٤.

أشجارها الباسقة. وهو عينه ما نجده في قصيدة محمود درويش  
(يوميات جرح فلسطيني) ومنها<sup>(١)</sup>:

نحن في حلٍّ من التذكار

فالكرمل فينا

وعلى أهدابنا عشب الجليل

لا تقولي: ليتنا نركض كالنهر إليها

لا تقولي!!

نحن في لحم بلادي. وهي فينا

نحن يا أختاه من عشرين عام

نحن لا نكتب أشعاراً

ولكننا نقاتل

—

هذه الأرض التي تمتص جلد الشهداء

تعد الصيف بقمح وكواكب

فاعبديها!!

نحن في أحشائها ملح وماء

وعلى أحضانها جرح. يحارب

بهذه الكلمات تكتسب الأرض معنى القداسة والأسطورة؛ حين تعلق بها  
تعلق العاشق المجهول بذراتها ولاسيما أنه واحد من الشعراء الذين غادروا  
الوطن إلى بيروت وغيرها فأدرك أن " العبث ليس عبث النضال، عبث  
الوصول، بل عبث المنايا كماهية ووجود طارئ، ومعنى منافٍ لمعنى الاستقرار

---

(١) ديوان محمود درويش ١٦٥.

والطمأنينة (الوطن). هذا المعنى المنفى يقودنا إلى اللامعنى، ولا يطل بنا على شيء؛ أي إن انقطاع الجسد عن المكان / الوطن بعد أن أصبح الإنسان بعيداً عن وطنه، وغداً لاجئاً يتنقل في البلاد، ويسكن الخيام التي يعصف بها برد الشتاء، وقرّ الصيف... ولم ينقذه من مأساته هذه إلا ذكرياته المتخيلة عن وطنه، حاملاً معه أحلامه عن أرضه وما كان يربطه بها من رموز شتى كالشجر؛ والدروب و....<sup>(١)</sup>.

ولهذا يجعل الشاعر الفلسطيني محمود حامد الشهداء الذين رووا تراب وطنهم بدمائهم زيزفون الأرض الذي يتجلى عطراً وأريجاً يفوح في جنباته؛ فيقول في مطلع قصيدته عن شهداء غزة بعنوان (زيزفون الأرض)<sup>(٢)</sup>:

هم زيزفون الأرض، مرآة الكلام

وأجمل الآتين في الشهداء

والماضين في وجع القصيدة للنهاية،

زيزفون الأرض هم،

والمصطفون من الأحبة في الإياب

\* \* \*

هم زيزفون الأرض؛

حورٌ للأعالي صاعد

وغد فسيح الأمنيات

وكوكب متخيل

ستظل تنزفه المحابر من دم الشعراء؛

أقمار الندى، والأغنيات الخالدة

---

(١) انظر شعر الانتفاضة في البعدين الفكري والفني ٤١.

(٢) جريدة الأسبوع الأدبي - العدد ١١٣٧ - ٢٠٠٩/٢/٧م - اتحاد الكتاب العرب - دمشق..



ولهذا فإن التشبث بالأرض أو الدفاع عنها يظهر بأشكال ورموز ودلالات من المرأة إلى الشجرة<sup>(١)</sup>... وكل أديب يقص علينا حكاية مشاعره وآماله فيها... يستبسل في حمايتها؛ مثلما يموت عشقاً في حبها، وكل جزء من الأرض أغلى من الآخر ما يعني أن أرض فلسطين لا تختلف عن أي أرض عربية لكل مواطن عربي أينما كانت دولته الوطنية. ولعل الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود من أبرز الشعراء الذين بذلوا نفوسهم رخيصة في سبيل الأرض العربية فسقط شهيداً دونها في معركة الشجرة يوم (١٣/٧/١٩٤٨م)، وهو القائل في قصيدة (الشهيد):<sup>(٢)</sup>

|                            |                          |
|----------------------------|--------------------------|
| أرى مقتلي دون حقِّي السليب | ودون بلادي هو المبتغى    |
| يلد لأذني سماع الصليل      | ويبهج نفسي مسيل الدما    |
| وجسم تجندل فوق الهضاب      | تناوشه جارحات الضلا      |
| كسا دمّه الأرض بالأرجوان   | وأثقل بالعطر ريح الصبا   |
| لعمرك هذا ممات الرجال      | ومن رام موتاً شريفاً فذا |

فالرؤية الشعرية المقاومة كانت صنواً للتضحية من أجل الأرض الغالية لكي تعيش بعزة وكرمة... ما جعل الشعراء يتغنون بمجد الشهداء وشجاعتهم؛ وكرمهم وإيثارهم لوطنهم على أنفسهم؛ وقد تمثلت بهم كل المعاني السامية للشهادة والفداء.

لذلك يعيد سميح القاسم (شاعر الأرض) إلى أذهاننا صورة الفدائي المقاوم فيقول:<sup>(٣)</sup>

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| خلوا القتيل مكفناً بثيابه | خلوه في السفح الخبير بما به |
|---------------------------|-----------------------------|

(١) انظر ديوان محمود درويش ٢٣٢ و ٢٤٠ - ٢٤١ و ٢٤٧ و ٢٥٩ و ٣١٢.

(٢) الخالدون - أحمد سعيد هواش - مجلة الثقافة - تشرين ٢ - ٢٠٠٧م.

(٣) الخالدون - أحمد سعيد هواش - مجلة الثقافة - تشرين ٢ - ٢٠٠٧م.

هل تسمعون؟ دعوه نسرّاً دامياً  
بين الصخور يغيب عن أحبابه  
خلوه تحت الشمس تحضن وجهه  
ريح مطيبة بأرض شبابه  
وعلى السهول الصفر رجع ندائه  
يا أبهاً بالموت لست بآبه

وكلنا يحفظ قصيدة (الشهيد) لإبراهيم طوقان، ومنها:<sup>(١)</sup>  
عيس الخطبُ فابتسم  
وطغى الهول فاقتم  
لم ييــــــــــــــــال الأذى ولم  
يئنّه طــــــــــــــــارئ الأثم  
سار في منهج العالا  
يطرق الخلد منزلا  
لا ييــــــــــــــــالي مكــــــــــــــــبلاً  
نالــــــــــــــــه أم مــــــــــــــــجناً دلا

فإذا أصاب أيّ جزء من الأرض العربية مكروه ما تداعى له بقية  
الأجزاء بالتضامن والتعاون والنصرة مهما تباعدت الطبيعة الجغرافية بين  
تلك الأجزاء.

ويعد عمر أبو ريثة واحداً من الشعراء الذين غضبوا لفلسطين، ومما  
قاله:<sup>(٢)</sup>

أمتي هل لك بين الأمم  
منبر للـسيف أو للـقلم  
أمتي؟! كم من غصة دامية  
خنقت نجوى علاك في فمي  
أي جرح في إبائي راعف  
فاته الآسي فلم يلتئم  
الإسرائيل تعلو رايية  
في حمى المهذ وظل الحرم  
كيف أغضيت على الذل ولم  
تنفضي عنك غبار التهم

لهذا يستحث أمته للثورة وتحرير فلسطين متخيلة عن الهوان والذل  
مذكراً إياها بحادثة المعتصم مع تلك المرأة التي صاحت (وامعتصما).

(١) انظر المقاومة - انتخابات شعرية - ١٥٨ - ١٦٠.

(٢) انظر المقاومة - انتخابات شعرية - ٩٩ - ١٠٠.

ومن يقرأ الأدب العربي المقاوم يدرك أنه أدب منتم إلى أرض الوطن العربي الأكبر وليست أرض فلسطين إلا الرمز المجسّد للانتماء العربي و... من هنا كانت الحسرة التي كوت قلب نزار قباني حين تجمع الصهاينة في فلسطين بمساعدة الأمم المتحدة ودنسوا ترابها الغالي... فالدول الكبرى تآمرت على الأرض العربية ابتداء (بسايكس - بيكو) (١٦/٥/١٩١٦م) و(وعد بلفور) (٢/١١/١٩١٧م) وانتهاء بالانتداب الغربي الذي فرض على الوطن العربي، وما نتج عنه من زرع غدة سرطانية في الجسد العربي... في عام (١٩٤٨م). ولهذا لا بد من حمل البندقية لمقاومة المحتل الصهيوني الغاصب؛ ما يعني أن القتال واجب على كل عربي لتخليص فلسطين من الصهاينة التي دنسوها ومما قاله في قصيدة (طريق واحد)<sup>(١)</sup>:

أصبح عندي الآن بندقية

إلى فلسطين خذوني معكم

يا أيها الرجال

أريد أن أعيش

أو أموت كالرجال

أريد أن أنبت في ترابها... زيتونة

أو حقل برتقال

أو زهرة شذية

قولوا لمن يسأل عن قضيتي...

بارودتي صارت هي القضية...

أصبح عندي الآن بندقية

أصبحت في قائمة الثوّار

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة - مج ٣/٢٢٩.

أفترش الأشواك والغبار  
وألبسُ المنية...  
مشيئة الأقدار لا تردني  
أنا الذي أغير الأقدار

فالطريق الذي يختاره نزار هو طريق المقاومة، واستنهاض الحمية العربية لدى أبناء الأمة.

فلا عجب بعد هذا أن تسير الشاعرة (جوزفين إلياس كوزاك) على خطى نزار؛ فترى أن أرض فلسطين هي أرضها، وأن أرض غزة هي أرضها تفديها بكل غال ورخيص، وتتمنى أن تساعد شعبها الذي تعرض للعدوان الصهيوني الآثم لمدة ثلاثة وعشرين يوماً منذ (٢٧/١٢/٢٠٠٨م). وإذا كانت شاعرتنا بعيدة عن أبناء غزة فهي تشاطرهم مقاومتهم متفائلة بالنصر المحقق... لذلك تقول في قصيدة لها بعنوان (سَنَبَلُ الحلم)<sup>(١)</sup>:

إنها أرضي فلسطين لنا      قدس أقداسي شراييني بلادي  
أينعت ثورتنا ثروتنا      تتصدى للأعداء للعوادي  
سَنَبَلُ الحلم بساحي وانبرى      يشحن الهمة قومي للحصاد

أما ظاهرة الاغتراب فإنها تؤكد حب الأرض والتوق إليها والرغبة في الرجوع إلى مراتبها، فهي تجسد روح الانتماء إلى الهوية الوطنية... وهذا نمط قديم في الأدب العربي يؤصل فكرة الارتباط بالمحل الذي ولد فيه الإنسان ونشأ... وفي هذا الأدب تتجلى موضوعات الحنين الناتج عن الاغتراب المكاني، فضلاً عن الاغتراب الاجتماعي.. ولا شيء أدلّ عليه من قول عمر بن أبي ربيعة<sup>(٢)</sup>:

(١) جريدة الثقافة الأسبوعية - ٢٤/١/٢٠٠٩م - دمشق.

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٣٩١ - شرحه عبد الأمير . أ. مهنا - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٦م.

قد هاج قلبك بعد السلوة الوطن والشوق يُحدثه للنازح الشَّجَنُ

وتعد تجليات الحنين والشوق إلى أرض فلسطين من أعظم تجليات الأدب المقاوم؛ وقد تناولهما الشعراء بكثير من القداسة التي ارتفعت بالأرض إلى منزلة الطُّهْر والعبادة، كما ورد على لسان الشاعر الفلسطيني محمود الأفغاني<sup>(١)</sup>:

مواطني يا موطني ما أبدعك      أي فردوس يحاكي أربَعَك؟  
كل جنات الورى في أعيني      لم تكن شيئاً إذا قيست معك  
أنت خُلد الله في الدنيا وما      أحسب الكوثر إلا منبعك

لهذا نستشعر عظمة الحنين إلى مثل هذه الأرض المقدسة في نفوس أولئك اللاجئين في المنافي كما ورد على لسان الشاعر الفلسطيني يحيى برزق، وكان لاجئاً في الكويت وتوفي فيها في (١٤/١/١٩٩٤م) فهو يستحضر حالة اللجوء التي تعادل الموت السريري.... ما فرض عليه الانحياز إلى حالة من التذكر؛ والرجوع إلى أيامه القديمة في فلسطين المحتلة في تداعٍ درامي يحاول فيه القبض على أرضه التي فقدها، ومما قاله:<sup>(٢)</sup>

يا قلب مالك في الحوادث كلما      ذكر الحمى خلت الوجود جهنماً  
فمضيت تخفق في الأضالع لاهتاً      متهدماً تشكو مصابك للسما  
حتى غدوتُ وذكرياتى مأتَمُّ      إن أقبلت أرسلت دمعي عنّدا  
ويكاد يقتلني الحنين إذا شدت      قُمْريّة فوق الغصون. تألّما  
واحسرتي للأهل فرّق شملهم      كيد الخطوب وللفجائع أسلما  
والهفتي والدرب يغمره اللظى      متفجراً، والليل تصبغه الدماً

(١) انظر ديوان العودة ٣٦٥.

(٢) انظر ديوان العودة ٣٧٠ - ٣٧٤.

ولسوف نرجع يا فؤادي للرُّبَا يوماً تباركه السماء مُحْتَمًا

ولعل فلسفة الفكر المقاوم تحثنا على القول: إن هذا النمط يشدد على مرارة الافتراق عن الوطن، ولو كان الرحيل عنه طوعاً فكيف إذا كان هذا الفراق قسراً وكرهاً بيد المحتل الغاصب الذي فرض التهجير والغربة على أبناء الشعب الفلسطيني قبل النكبة وبعدها؟!... فاللجوء في ديار المنافي يصفع الوجوه بالألم والحسرة والحنين والشوق فيسعى الأديب المقاوم إلى تجاوزه بمواجهة حالة الاقتلاع وما تنتجه من مأسٍ لحالة الحضور والدفاع عن الذات من خلال السمو فوق الواقع المأساوي لذلك اللاجئ الذي يرحل من مكان إلى آخر، وهو يحمل وطنه صليباً على صدره؛ أما من بقي في داخل وطنه فعليه ألا يجعل بيته المحاصر فيه منفى داخلياً.... والشرط الموضوعي للخروج من هذا المنفى أو ذاك أن يواجهه بكل قوة وجرأة؛ وأن يتحرر من قيده الذي فرض عليه، ولو بذل روحه في سبيل خلاصه من النفي. ويمكن أن نستجلي شيئاً من ذلك في قصيدة (اللقاء الأخير) لمحمود درويش ومنها<sup>(١)</sup>:

وماذا بعد هذي الأرض، ماذا

وزندك شارع، وأنا رحيل

ثقبت الأرض بحثاً عن سواها

فأسندني - لأسندها - الجليل

أنا الأرض الأغاني، وهي ترمي

بمدحك حنطة... وأنا القتل

\* \* \*

صباح الخير يا ماجدٌ

---

(١) ديوان محمود درويش ص ٤٠٦.

صباح الخير  
قم اقرأ سورة العائد  
وحتّ السير  
إلى بلد فقدناه

إن حالة الرحيل من منفى إلى منفى؛ ومن أرض إلى أرض (ماذا... ثقت) تحرك الذاكرة الجماعية لحالة المنايا والمبيت في الخيام على قارعة الطريق، وتثير الصخور الجلاميد من مرابضها... لهذا كانت تجربة اللجوء القسري قاسية باهظة الثمن لكل من اکتوى بلهيبها، ما فرض على الأديب أن يغني للأرض الوطنية لأنها جزء منه وهو جزء منها... من هنا يردد محمود درويش إلى الطفولة القادمة ويغني بهذا النشيد المحمول على الفرح بالعودة؛ وهي عودة مقدسة وفق ما انتهت إليه رمزية (قم اقرأ سورة العائد). فإذا كانت حالة الولادة بغلال الحنطة فإن حالة الولادة للنصر القادم تتبثق من هذا التمسك بحق العودة. إنه الحق الذي جعل الشعراء يتغنون بفلسطين بكثير من القصائد التي زادت على المئة فشكلت (ديوان العودة) عند سمير محمود عطية<sup>(١)</sup>.

فالمنايا كما السجون<sup>(٢)</sup> غربة في المكان واغتراب في النفس تجلها الحسرة والخيبة، ويملؤها الحنين بالتوق الأبدي إلى الأرض والأهل؛ والأصحاب والخلان والقوم علماً أن هناك اختلافاً يسيراً بين أدب الاغتراب في السجون وأدب الاغتراب في المنايا وإن التقياً بخصائص مشتركة. وقد عرف أدب السجون منذ القديم عند العرب، ولكنه في الأدب الفلسطيني اتخذ أبعاداً جديدة تلتصق بمفهوم المقاومة والتضحية في سبيل الأرض بدءاً

(١) إصدار تجمّع العودة الفلسطيني (واجب) - دمشق - ٢٠٠٨م.

(٢) انظر المقاومة - منتخبات شعرية - ١٣٧ و ١٤٠.

من تلك الرسائل التي أرسلها الشهيد (فؤاد حجازي) إلى ذويه في (١٨/٦/١٩٣٠م) قبيل إعدامه مع محمد مجوم، وعطا الزير.. وانتهاء بالشعر الذي انطلقت به الحناجر؛ وأي نمط أدبي مقاوم إنما يمثل قوة ذاتية فاعلة لتحدي السلطة؛ وتبصيراً بموقفه الذي يعبر عن إرادة المقاومة، وحلمه في الخروج والعودة إلى أمة، كما قال سميح القاسم<sup>(١)</sup>:

أسندتُ ظهري للجدار  
مُهَدِّمًا ... وغصتُ في دوامةٍ بلا قرار  
والتهبتُ في جبهتي الأفكار

.....

أماه! كم يحزنتني!  
أنك، من أجلي في ليلٍ من العذاب  
تبكين في صمتٍ متى يعود  
من شغلهم إخوتي الأحباب  
وتعجزين عن تناول الطعام  
ومقعدي خالٍ .. فلا ضحكٌ .. ولا كلام  
أماه! كم يؤلّني!  
أنك تجهشين بالبكاء  
إذا أتى يسألكم عني أصدقاء  
لكنني . أومن يا أماه  
أومن ... أن روعة الحياة  
تولد في معتقلي

---

(١) انظر المقاومة - منتخبات شعرية - (رسالة من المعتقل لسميح القاسم - ١٢٧-١٢٩، ومن وراء القضبان لتوفيق زياد - ١٤٠-١٤٦)، وراجع ما تقدم ٢٩-٣٠.



فنحن نقرأ في هذا النص أدباً عاطفياً مشبوحاً على التعلق بالأرض وحب الوطن، وهو ما قرأناه في رسائل فؤاد حجازي فهو حين يلاقي ربه يكون قد أدى واجبه بكل شرف وأمانة ومما جاء فيها وصيته لبعض إخوته: "رجائي إليك يا يوسف أن تلجأ إلى الهدوء والسكينة، عليك ألا تتأثر لمصرع فؤاد لأن فؤاد لم يخلق إلا لهذه الساعة، وله الشرف الأعلى بأن يقضي في سبيل القضية العربية الفلسطينية"<sup>(١)</sup>. ومن ثم فإن معاني القصيدة الاغترابية لأدب المنايا والسجون تكتسي طعماً مراً يذوب المأ في النفس؛ فيقلب العقل على نار الوجد الكاوي. ولعل رمزية البحر الذي كان يريد ابتلاع كل شيء عند محمود درويش تقف في تضاد مع الأصداف الثابتة، ما يجعله يتمسك بالحياة من أجل أن يكحل عينية برؤية بلاده... فالأمل بالعودة صار يمثل نمطاً من الانتماء الأصيل الصادق إلى الوطن السليب، فيقول:<sup>(٢)</sup>

ونريد أن نحيا قليلاً كي نعود لأي شيء

لم نأت كي نأتي

رمانا البحر في قرطاج أصدافاً ونجمة

من يذكر الكلمات حين توهجت وطناً

لمن لا باب له؟!!

... فالاغتراب الأدبي في الأدب المقاوم يغدو معادلاً موضوعياً للاقتلاع من الأرض؛ والهجرة عنها. لهذا يحدثنا الشاعر كمال ناصر - وقد بلغ من العمر ما بلغ - عن المعاناة الشديدة التي كان يلقاها وهو بعيد عن أرضه/ وطنه علماً أنه ما ولد إلا مضمخاً بالجراح والدماء... ولكنه لم يقنط من الرجاء في الرجوع إلى فلسطين، بالرغم من وجود الجاحدين... فقد تسلح

(١) انظر مجلة فتح - من أدب السجون - ص ٤٨ - ٤٩ - العدد ٥٧١ - دمشق ١/٣/٢٠٠٧م.

(٢) انظر ديوان محمود درويش ٤٥٠.

بعقيدة العودة والنضال من أجلها؛ ولا بد له من الثبات على هذا الموقف النبيل، في الوقت الذي يطلب الصفح عن أولئك الغافلين.

فرحابة الفكرة لديه مثلت رحابة العبارة الشفافة الموحية بالتسامح، وقد رأى أن جميع اللاجئيين شركاء في المأساة، وعليهم أن يوحدوا موقفهم بالتوجه إلى الكفاح من أجل العودة، ومما قاله في قصيدته<sup>(١)</sup>:

بُعِثتُ للدنيا خضيب الجناح  
تسيل من جنبيك حمر الجراح  
فاخلد على صدر العلى والرماح  
واصمد وعش للشعب عش للكفاح  
أنت غريب الروح بين البشر  
يشعُ من عينيك معنى الظفر  
لا تبتئس ما جئت هذا الوجود  
إلا لتحيا في جنان الخلود  
إن تلق بين الناس بعض الجحود  
فاصفح فبعض الناس قلب حقود  
طبيعة الأبطال هذا السماح  
فاصمد وعش للشعب عش للكفاح!!

فالشاعر يشترك مع بقية الأدباء المقاومين في تقاسم تجليات اللجوء والمنايا والخيام والعودة<sup>(٢)</sup>... ويؤسس في ذاكرتنا هذا المخزون الشعوري العظيم

---

(١) المقاومة - منتخبات شعرية - ١٥٣ - ١٥٤ - سلسلة الكتاب الشهري - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٦م، وانظر جريدة تشرين ٢/٣/٢٠٠٩م - دمشق.

(٢) انظر ديوان العودة - الباب الثالث، الفصل الأول: تشريد ولجوء ١١٩ - ١٦٨ والفصل الثاني

للمعاناة القاسية للشعب العربي الفلسطيني، الذي يكابد اللوعة والحرقة من حرمانه للوطن والأرض في بعدهما الاجتماعي والتاريخي. لهذا يعيش الشاعر في ثورة دائمة لمعانقة ألق العودة والحرية وبناء دولته الموحدة المستقلة بعد هذا الشتات المر، والانقسام الحاد في الرؤى، فراضاً رؤية واضحة ودقيقة على كل اللاجئين الذين يعيشون في المنافي؛ لكي يصمدوا أمام كل الأحداث المروعة التي تواجههم؛ إذ لا يجوز لهم أن يختلفوا فيما بينهم على حق العودة، ولا يجوز لهم أن يقفوا في مطالبات التشكيك بهذا الحق... والاستسلام والتسويات المرة التي جاءت بها اتفاقية (أوسلو) وعبر عنها سليم الزعنون، ومما قاله<sup>(١)</sup>:

|                               |                                  |
|-------------------------------|----------------------------------|
| تجيء (أوسلو) بجنح الليل غانية | والوجه يخفى عن الأنظار أدرانا    |
| يا ويلنا هل تعجلنا؟ فأرهقنا   | خفاء ما تحتوي زوراً وبهتاناً     |
| يا صاحب الأمر حاذر من         | واقراً: تجد أن في القرآن تبياناً |
| إما تخافن من قوم خيانتهم      | فانبد إليهم ومن في الليل يقظانا  |
| ما عاهدوا العهد إلا راح ينقضه | منهم فريق يدير الأمر شيطاناً     |
| يا كل من عارضوا هاتوا سيوفكم  | فالأرض تشهد أتراحاً وأحزاناً     |
| والزحف في الأرض لازالت وسائله | كالسهم يضرب أضلاعاً وشرياناً     |
| قد خدرونا بتأجيل وليس له      | لدى القوي سوى وعدٍ، وقد هانا     |

فهذه القصيدة تعلن بكل جلاء ووضوح أن التسوية تضيع الأرض ويفقد اللاجئين حقهم في العودة. ومن ثم تغدو مقاومة التطبيع جزءاً لا يتجزأ من الأدب المقاوم وتجلياته، وهذا ما كان قد أشار إليه هارون هاشم رشيد من قبل<sup>(٢)</sup>. فمقاومة التطبيع تأكيد للهوية وتجسيد للانتماء الصادق، ما يجعل تصور دعاة الاستسلام للعيش المشترك وهمماً حقيقياً لأن اليهود لم يكونوا

(١) ديوان العودة ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) راجع ما تقدم ٢٧ - ٢٨.

أصحاب عهد ولا ذمّة<sup>(١)</sup>. وعليه فإن موقف الأديب المقاوم يظل موقفاً حراً  
يرفض أي شكل من أشكال المصالحة مع العدو، ولو قام بها بعض الأدباء  
والمتقنين والساسة.. فمن مال منهم إلى مصالحة العدو جلب العار للأدباء  
والمقاومين<sup>(٢)</sup>... ولهذا هجا الشاعر معين بسيسو الشعراء المساومين الممثلين  
فيقول رامزاً بشخصية البحتري إليهم:

كان يدرب القصائد ...

في نَعْلَي أمير

كان مخبراً وشاعراً شريراً

وكان قلبه دينار ...

وكان سيفه مسمار ...

يسرقه من حدوة أو من جدار

لكي يدقه في كأس كل شاعر

لقاء ذلك الدينار

وهنا نتساءل: من منا ينسى (التغريبة الفلسطينية)<sup>(٣)</sup> التي كتبها  
الدكتور وليد سيف؟! إنها ملحمة للتمسك بالأرض الفلسطينية، إذ كانت  
تعيدنا إلى بقاع فلسطين مزارع وقرى ومدناً ومواقع... مقاهي ومدارس،  
وحارات وبيوتاً... وكانت هذه التغريبة تعيدنا إلى الإرث الاجتماعي والثقافي  
الفلسطيني لتضعنا في صميم الانتماء، ولتنفخ في أرواحنا روح المقاومة لكل  
ما يتعرض له تاريخ تلك الأرض من تزييف وتشويه وتحريف.

---

(١) انظر قصة (المحطة الأخيرة - شارع الأنبياء) لرواية بربارة - مجلة تاكي - ص ٢٨ -  
العدد ٣٥ - عمّان ٢٠٠٢م.

(٢) انظر المرجع السابق ١٣٧ - ١٢٨.

(٣) تحولت إلى وثيقة تلفزيونية على يد المخرج حاتم علي.

فهي تقول لكل إنسان: إن مرور إحدى وستين سنة على النكبة لم يمح من ذاكرة الأجيال العربية حب فلسطين والتمسك بها؛ والحرص على العودة إليها. هذا ما أسسه من قبل الروائي الفلسطيني (غسان كنفاني) في قصته (عائد إلى حيفا)... فمقاربة التشبث بالأرض تظهر في مقاربة أبناء المخيمات لحالة اللجوء المر الذي كوى الأفئدة... وحين يصرُّ الأدب المقاوم على ذلك فإنه لا يتجاهل تصوير العذابات المؤلمة التي تعرض لها الفلسطينيون لاجتثاثهم من أرضهم إما بالسجن، وإما بالترويع الوحشي بقتل الأبناء والأحبة وإما بالتهجير القسري المنهجي. فالسجون الصهيونية - اليوم - بلغت ستة وعشرين معتقلاً، ومنها (عوفر والنفحة وهداريم) وغيرها مازالت تعتقل «أحد عشر ألف أسير فلسطيني، بينهم (١٢٠) امرأة و(٣٤٥) قاصراً، و(٢٥٠) مريضاً، حالة بعضهم خطيرة، ونحو (١٥٠) عضواً من المجلس التشريعي، وعلى رأسهم رئيس المجلس وسبعة وزراء علاوة على الأمين العام للجبهة الشعبية، ومروان البرغوثي أحد مسؤولي فتح».<sup>(١)</sup>

فهؤلاء السجناء من مختلف الفصائل الفلسطينية، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً يتعرضون للعقوبات «الجماعية وعمليات الدهم، والإهانات ومنع الزيارات، وعدم إدخال الكتب والمواد الثقافية، والاحتفاظ والتضييق والضغط النفسي والمادي...»<sup>(٢)</sup>. فإذا تذكرنا حالة المعاناة القاسية لأسرهم؛ أدركنا أن وحدة المصير هي واحدة لكل أبناء الشعب الفلسطيني؛ ما يرتب عليه أن يوحد موقفه، وأن ينظم جهوده لمواصلة نضاله على مختلف الصعد والمستويات لاجتثاث الشر من الأرض الفلسطينية... وهو ما تحدث عنه الأدباء وفق الفقرة الآتية.

(١) انظر مجلة فتح - ص ٩ - العدد ٥٨٥ - دمشق - أيار ٢٠٠٨م.

(٢) انظر مجلة فتح - ص ٩ - العدد ٥٨٥ - دمشق - أيار ٢٠٠٨م.

## ٢ - تجليات وحدة الموقف والمصير

حين أخذ الكيان الصهيوني يلعب لعباً مكشوفاً وفاضحاً لتنفيذ أهدافه كان يضع المخططات اللازمة لذلك... وكان هذا الكيان يفيد من تآكل الجسد العربي وطنياً وقومياً، ويلعب على الانقسامات التي يخترعها هو وحلفاؤه على الصعيدين الشعبي والرسمي.

فالخطر لم يعد حكراً على هدم الهوية العربية؛ وعلى مفهوم اغتصاب فلسطين؛ إذ اتجه الاحتلال إلى انتزاع الاعتراف به من الأنظمة الرسمية العربية في قمة بيروت (٢٠٠٢م) بعد أن أخذ حق الاعتراف من بعض أبناء الشعب الفلسطيني في اتفاقية أوسلو (١٣/٩/١٩٩٣م)...

وحين ظلت أكثر الشرائح الشعبية العربية موحدة في مواقفها نحو القضية المركزية مستنكرة لذلك التوجه، كان عدد من المثقفين يلتحقون بالقيادات الرسمية التي أعلنت عن تطبيع سياسي، واقتصادي مع الكيان الصهيوني... ومن ثم أصبحت المقاطعة العربية لبضائع هذا العدو وحلفائه أثراً بعد عين؛ إذا لم نقل إن الغاز والنفط العربي طفق يزود آلة القتل الصهيونية بالقوة والحياة.

ومن ثم انشغل النظام الرسمي العربي بخلافات صغيرة، وأوضاع شياً فشيئاً قضيته المركزية؛ فضلاً عن ضياع قضايا الوطنية؛ ما شجع الكيان الصهيوني على الاستمتاع بإرادة دماء الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ...

كان المظنون بمعاهدة الدفاع العربي المشترك؛ والجامعة العربية؛ وكل المبادرات الوجودية أن تؤتي أكلها... بيد أن الذي جرى تمزق في وحدة الموقف سياسياً وعسكرياً، وتبعه تشتت في بقية الاتجاهات والمواقف...

وكان المظنون من التوافق الذي حدث في حرب تشرين/ أكتوبر (١٩٧٣م) أن يستمر، ولاسيما أن العرب جميعاً منكوبون بنكبة (١٩٤٨م) ونكسة (١٩٦٧م) واجتياح بيروت (١٩٨٢م) ومجازر الإبادة الجماعية والتدمير المنهجي الذي ارتكبه آلة التوحش الصهيونية في الانتفاضة الأولى (١٩٨٧م) وفي قانا (١٩٩٦م) وفي الانتفاضة الثانية (٢٠٠٠م) ومذبحة جنين (٢٠٠٢م) ومحركة العدوان على لبنان (٢٠٠٦م) وعلى غزة (٢٠٠٨م)... لكن الذي وقع - وللأسف - اختلاف في وحدة الموقف واختلاف في حل مقبول للقضية المركزية فضلاً عن الاختلاف في قضايا أخرى كاحتلال العراق (٢٠٠٣م)... فالنظام العربي الرسمي ومن تبعه من المثقفين لم يحسنوا الاستفادة من الحراك الشعبي الشريف والقوي والموحد على قلب رجل واحد، ولذلك وقعت النكبات التي حلت بالأمة العربية، دون أن يستحي النظام الرسمي العربي من خزياء ما فرض على الأدباء - غالباً - أن يتصدوا لذلك؛ ويتبنوا الأدب المقاوم، وراحوا يصورون الواقع العربي البائس بكثير من السخرية والازدراء؛ ولاسيما حين استشعر هؤلاء الأدباء ظاهرة الافتراق في الموقف الموحد بعد نكسة (١٩٦٧/٦/٥م)؛ واستطاعوا أن يحلوا سبب هذه النكسة كما عبر نزار قباني في قصيدته (الممثلون) ومنها<sup>(١)</sup>:

حرب حزيران انتهت

فكل حرب بعدها ونحن طيبون

أخبارنا جيدة

وحالنا - والحمد لله - على أحسن ما يكون

\* \* \*

تغلغل اليهود في ثيابنا

ونحن راجعون

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة - مج ٣/ ١١٢ - ١١٣.

صاروا على مترين من أبوابنا

ونحن راجعون

ناموا على فراشنا

ونحن راجعون

وكل ما نملك أن نقوله:

إنا إلى الله لراجعون

هكذا شاعت قيم جديدة في الفكر العربي السياسي الرسمي؛ وفي فكر بعض النخب الثقافية والأدبية... قيم تدعو إلى التطبيع مع العدو الصهيوني؛ ثم المصالحة معه بوصفه غدا حقيقة ثابتة لديهم، كما زعموا ووفق ما عرضنا له قبل قليل.

وشاعت المفاهيم الغربية الداعية إلى الحوار مع الآخر الصهيوني والغرب الداعم له... لأن الأنظمة العربية الرسمية فقدت الصبر والاحتمال على مواجهة العدو؛ ومن ثم فقدت وحدة الموقف... وقد زخرفت للحوار تحت مبدأ: (هناك أشكال أخرى للمقاومة) فالمقاومة العسكرية لم تنجح في إعادة الأرض المغتصبة - كما زعمت تلك الأنظمة - وعلينا أن نتبع المقاومة السلمية؛ كما صرح به غير ما نظام مثل السلطة الفلسطينية، وبعض الأنظمة العربية منذ اتفاقية (كامب ديفيد ١٩٧٨م)...

ومن ثم وقف الأدب المقاوم في وجه المغالطات السياسية والفكرية التي حاصرت الحكام العرب... وأبرز أن الانقسام العربي للحكومات العربية، والمواقف الضدية هي التي أدت إلى ذبح الشعب العربي في فلسطين ولبنان والعراق... ومن ثم فإن هذه الحكومات فقدت بوصلتها الحقيقية المجسدة بالمقاومة الوطنية والقومية في إطار التوحيد في الموقف السياسي والفكري والعسكري... ولو وقفت الحكومات العربية موقفاً موحداً - كما حدث في



حرب تشرين/ أكتوبر ١٩٧٣م - لتغيرت الصورة... لكن هذه الحكومات  
حاصرت شعوبها بالانقسام والتشتت، وخدمت المشروع الصهيوني بكل  
وضوح كما حدثتا عنه الشاعرة الكويتية (سعاد الصباح):

يا زماناً

ما له لون ولا طعم ولا رائحة

رحل الأعراب عنه؛ وأتى المستعربون

واستقال السيف من أحلامه

واستقال الفاتحون

- - -

كيف يمكن للفجر أن ينبج حرية وكرامة؛ والعرب يواصلون شتم  
بعضهم بعضاً، فالزمن العربي مملوء بالعذابات الحزينة؛ لذلك تقول سعاد  
الصباح - أيضاً -:

لا تسأل عن الأعراب

فإنهم قد أتقنوا صناعة السباب

وواصلوا الحوار بالظفر والأنياب

وحاصروا شعوبهم بالنار والحرب

وإذا كان من الصعب علينا أن نتكهن - حتى الآن - بوحدة الموقف  
والقرار على الصعيد الرسمي وفق ما انتهت إليه حال القمم العربية وآخرها  
قمة الكويت (١٩ - ٢٠/١/٢٠٠٩م) فإننا نرى أن الخيار الوحيد للخلاص من  
هذا الواقع البائس ينبثق من وحدة الموقف والمصير للعرب جميعاً، والالتفاف  
حول القضية المركزية بوصفها جوهر الصراع العربي - الصهيوني؛ وأن  
تكون المصلحة العليا للعرب إقامة علاقات بينية صادقة وصحيحة؛ وفق رؤى  
استراتيجية بعيدة المدى... وأن يصبح الأدب والإعلام معبرين عن ذلك..

فوحدة المصير بين العرب ليست ضرورة فحسب، وإنما هي وجود وتاريخ حياتي وانتماء جغرافي؛ أي إن العلاقة العربية - العربية لم تكن في يوم من الأيام طارئة، وليست هي مجرد علاقة حدود أو جوار بين بلدان متجاورة جغرافياً، فضلاً عن أن عنصر مقاومة العدو المشترك ينبغي أن يوحد المواقف، لأن مصير العرب مصير واحد... فمهادنة الثعلب للأسد الفاتك لن تدوم طويلاً مهما كانت منطوية على الحكمة. ومفادها أن الأسد طلب من الذئب أن يقسم له الطريدة، فوزعها بين الأسد والذئب والثعلب فما كان من الأسد إلا أن انقض عليه ودق رأسه؛ ثم طلب من الثعلب إعادة القسمة فقال: المقدمة والرأس لفظور الملك، وصدر الطريدة لغذائه، وما تبقى منها لعشائه... فسأله الأسد: من علمك الحكمة؟ فقال: رأس الذئب الطائر...

فالأنظمة العربية الرسمية كما يبدو لي لم تقرأ هذه الحكاية؛ وإذا قرأتها فقد أخذت منها ظاهرها، وتغافلت عن حقيقتها، فالأسد إذا جاع، ولم يجد طعاماً فسوف يجعل الثعلب طعاماً له... ومن ثم يصدق فيها ما جاء في قصة أخرى من قصص (كليلة ودمنة): أكلت يوم أكل الثور الأحمر، أو الأبيض...

فالتاريخ القديم والحديث أكد بما لا يقبل المراء والمشاحاة أن الكيان الصهيوني كيان عنصري عدواني متوحش، لا يردعه خلق ولا ضمير؛ ولا يبالي بمقدسات، أو عدالة أو قانون... وقد نسي الحكام العرب ذلك كله أو تناسوه.

أما الأدباء فلم ينظروا إلى قضايا وطنهم وأمتهم نظرة السياسي المحلل لأبعادها في إطار المصالح والمنافع الخاصة التي انقسموا عليها؛ وإنما نظروا إليها بمشاعرهم الصادقة، وإحساسهم بالانتماء المشترك إلى الهوية والأرض، وما يمليه الواجب نحوهما... لم يقفوا تجاه قضاياهم الوطنية والقومية حائرين مترددين في مواقفهم... ولم تريكهم الدهشة؛ ولم تأخذهم العزة بالإثم كما فعل الحكام العرب الذين صمتوا دائماً كلما دهم بعض أقطارهم الخطر الصهيوني وأذاقها الويلات؛ وجرعها المأساة... وفق ما هو آتٍ.

### ٣ - تجليات مقاومة الهزيمة والانكسار

استباح الصهاينة الأرض العربية ودنسوا مقدساتها؛ وذبحوا أبناءها؛ وشرّدوا من تبقى منهم... ارتكبوا بحقهم أفظع الجرائم الوحشية وفق ما سجلته الكلمة الأدبية المخترنة لاستنكار أفعالهم الهمجية... وقد حظيت القدس قبل غيرها بعدد من الأعمال الأدبية الشعرية والنثرية. فهناك روايات التي تناولت حكاية الإجرام الصهيوني فيها قديماً وحديثاً مثل (لا تقولي وداعاً - لهاني عودة) و(برج اللقلق - لغادة السمان) و(الثلاثية - لنبيل خوري) و(صورة وأيقونة وعهد قديم - لسحر خليفة)... وللقدس وعذاباتها أنشد نزار قباني باكياً في قصيدته (القدس) ومنها<sup>(١)</sup>:

بكيت حتى انتهت الدموعُ

صلّيت - حتى ذابت الشموعُ

ركعت حتى ملّني الركوع

سألت عن محمد فيك

وعن يسوع

يا قدس، يا منارة الشرائعُ

يا طفلة جميلة محروقة الأصابعُ

حزينة عيناك يا مدينة البتولُ

حزينة حجارة الشوارعُ

حزينة مآذن الجوامع

يا قدس ... يا مدينة تلتف بالسواد ..

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة - مج ٣/ ١٦١ - ١٦٢.

فالخيبة والمرارة تناسلت وتناسخت بأشكال شتى؛ وكانت في كل مرة تتج عن المجازر الدموية التي يرتكبها الصهاينة... فالمذابح مستمرة، والعذابات المؤلمة دائمة... ولا يملك العرب إلا الصبر والتسلح بالإرادة والثبات، ولا يملك الأدباء إلا الكلمة الصادقة للتعبير عن ذلك.. فبعض العرب قادة وشعوباً تخلوا - على نحو كبير - عن مقاطعة الشركات الغربية الداعمة للشركات الصهيونية، بل طفق عدد من الأنظمة العربية يزود الكيان الصهيوني بأسباب العدوان والقتل من نبط وغاز و... لقد باعوا التراث العربي النضالي بالمزاد العلني... باعوا الإنسان العربي في سوق النخاسة ما جعل الهزيمة القاسية لنكسة حزيران (١٩٦٧) سناً حادة تطعن الجسد العربي... ومن ثم يقوم الأدب على روح وثابة تدفع العربي إلى الصبر والثبات والأمل بالغد القادم. فالأدب المقاوم في أبرز تجلياته أنه يتمرد على الهزيمة والمأساة، وينتشل النفس المكلومة من حالة الإحباط واليأس إلى حالة الأمل بالمستقبل، وإن سقط المناضلون في جولة فلا بد من أن ينتصروا في جولة قادمة... لهذا حين يلجؤون إلى التناص مع الماضي المجيد ورموزه الأبطال فإنما يعمدون إلى أن دوام الحال من المحال، فبعد الليل سيأتي النهار، وسيولد ساطعاً... ولعل الشاعر يوسف الخطيب من أبرز المعبرين عن ذلك ومما قاله في قصيدة (عناقاً لك الصبح)<sup>(١)</sup>:

|                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| عناقاً لك الصبح رغم الظلام | أيا أملاً غائراً في الألم |
| أقرب في الليل آتي الصباح   | وأشدو على الجرح آتي النغم |
| يقولون- إن لم يكن ما تريد  | أرد ما يكون- فهذا قسم     |
| محال على العربي المحال     | عديم على العربي العدم     |
| أفض يا زمان الردى والخطوب  | أفض ننتفض أو ننم إن تئم   |

(١) انظر ديوان العودة ٢٦٤ - ٢٦٩.

لأننا وأنت هما التوأمان      رهانا خلود وصنوا شمم  
هنا أمة لا هرقل أبى      عليها، ولا عز كسرى عجم  
وان تك قد طويت صفحة      فسفر البطولة ما زال جَم

فالشاعر الخطيب يوجه بوصلة الحالة القاسية لوقع نكسة حزيران  
إلى تنمية الفعل الخلاق في الذاكرة العربية النضالية، ليتجاوز الحالة  
الطارئة التي رسخت الحزن والأسى...

وحين تجاوز يوسف الخطيب الحديث عن الأنظمة العربية الرسمية،  
ورأى أن العاصفة كانت أكبر من الجميع فإن نزار قباني صب جام غضبه  
على تلك الأنظمة وجعلها السبب الأول والأخير لهزيمة (١٩٦٧م)، وضياع  
فلسطين والقدس.

لهذا يصرخ نزار بأعلى صوته مستتهضاً صلاح الدين من قبره؛  
مستدعياً من التاريخ العربي صورة العظمة التي دمرتها الأنظمة العربية  
ومما قاله في قصيدة (مرسوم بإقالة خالد بن الوليد)<sup>(١)</sup> :

سرقوا منا الزمان العربي

سرقوا فاطمة الزهراء من بيت النبي

يا صلاح الدين

باعوا النسخة الأولى من القرآن

باعوا الحزن في عيني علي

يا صلاح الدين

باعوك وباعونا جميعاً

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة - مج ٣/٤٨٧.

في المزد العلني

\* \* \*

يا صلاح الدين ...

هذا زمن الردة

والمدّ الشعبيّ القوي

وتعدُّ قصيدة الشاعر أحمد مطر (تحية إلى غزة) من أبرز القصائد في هذا المجال حين وقف يعرّي حقيقة التخاذل العربي الرسمي الذي يقتات سياسة التخاذل والاستسلام على دم الأطفال والنساء الذين يدبّحون كالتعاج في شوارع غزة، وتدمر المنازل على رؤوس ساكنيها...

ولعل هذا المصاب الجديد يشي بأن المستوى الفكري للقصيدة ينبثق من موقف سياسي متأصل في النظام العربي الرسمي.. وهو يؤكد ذاته في سياقه التاريخي، وفق ما عبرت عنه القصيدة ولا سيما في إشارتها الصريحة إلى القدس

فغزة تعيش البلوى العظيمة بيد العايب الصهيوني المجرم كما حدث من قبل لبغداد، مدينة السلام؛ على حين أن الحكام العرب يتقولون أحاديث الأقتان والحسرة، ويرضعون الجبن من ثدي العجز والخوف، ومما قاله فيها<sup>(١)</sup>:

ارفعوا أقلامكم عنها قليلا

واملؤوا أفواهكم صمتاً طويلاً

لا تُجيبوا دعوة القدس

وَلَوْ بِالْهَمْسِ

كي لا تسلبوا أطفالها الموت النّبيل!

---

(١) مجلة الرأي - العدد ٣١ - ٢٠٠٩/٢/١٦م - دمشق.

دُونَكُمْ هَذِي الْفَضَائِيَّاتُ  
فَاسْتَوْفُوا بِهَا (غَادِرَ أَوْعَادِ)  
وَبُوسُوا بَعْضَكُمْ  
وَارْتَشَفُوا قَالاً وَقِيلاً  
ثُمَّ عُودُوا.  
وَاتْرَكُوا الْقُدْسَ لِمَوْلَاهَا  
فَمَا أَعْظَمَ بَلَاوَاهَا  
إِذَا فَرَّتْ مِنَ الْبَاغِي  
لِكَيْ تَلْقَى الْوَكِيلَا!

\* \* \*

طَفَحَ الْكَيْلُ  
وَقَدْ أَنْ لَكُمْ  
أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلًا ثَقِيلًا:  
نَحْنُ لَا نَجْهَلُ مَنْ أَنْتُمْ  
غَسَلْنَاكُمْ جَمِيعاً  
وَعَصَرْنَاكُمْ  
وَجَفَّفْنَا الْغَسِيلَا  
إِنَّا لَسْنَا نَرَى مُغْتَسِبَ الْقُدْسِ  
يَهُودِيًّا دَخِيلَا  
فَهُوَ لَمْ يَقْطَعْ لَنَا شَبْرًا مِنَ الْأَوْطَانِ  
لَوْ لَمْ تَقْطَعُوا مِنْ دُونِهِ عَنَّا السَّبِيلَا  
أَنْتُمْ الْأَعْدَاءُ  
يَا مَنْ قَدْ نَزَعْتُمْ صِفَةَ الْإِنْسَانِ

مِنْ أَعْمَاقِنَا جَيْلًا فَجَيْلًا  
وَاعْتَصَبْتُمْ أَرْضَنَا مِنَّا  
وَكُنْتُمْ نِصْفَ قَرْنٍ  
لِبِلَادِ الْعَرَبِ مُحْتَلًّا أَصِيلًا  
\* \* \*

أَتَعُدُّونَ لَنَا مَوْثَمَرًا!

كَأَلَّا

كَفَى

شُكْرًا جَزِيلًا

لَا الْبَيَانَاتُ سَتَبَنِي بَيْنَنَا جِسْرًا  
وَلَا فَتْلُ الْإِدَانَاتِ سَيُجَدِّيكُمْ فَتِيلًا  
نَحْنُ لَا نَشْرِي صِرَاحًا بِالصَّوَارِيخِ  
وَلَا نَبْتَاعُ بِالسَّيْفِ صَلِيلًا  
نَحْنُ لَا نُبَدِّلُ بِالْفُرْسَانِ أَقْنَانًا  
وَلَا نُبَدِّلُ بِالْخَيْلِ صَهِيلًا  
نَحْنُ نَرْجُو كُلَّ مَنْ فِيهِ بَقَايَا خَجَلٍ  
أَنْ يَسْتَقِيلَا

نَحْنُ لَا نَسْأَلُكُمْ إِلَّا الرَّحِيلَا  
وَعَلَى رَغَمِ الْقَبَاحَاتِ الَّتِي خَلَفْتُمُوهَا  
سَوْفَ لَنْ نَنْسَى لَكُمْ هَذَا الْجَمِيلَا!

\* \* \*

ارحلوا ...

أَمْ تَحْسِبُونَ اللَّهَ



## لم يَخْلُقْ لنا عَنكُمْ بَدِيلاً؟ أَيُّ إِعْجَازٍ لَدَيْكُمْ؟

فالقصيدة متعددة المستويات الدلالية لتعدد الأصوات الفنية فيها، ورحابة أسلوب الالتفات وأنماطه التي لا تقف عند ردة الفعل وإنما تدخل في صميم المشاركة الوجدانية للمعادل الفني، والحدث السياسي. حين جعل الحقد على الحكام يأخذ بعداً تحريضياً ثورياً للتخلص منهم؛ ما يؤكد أنه غذا أداة فاعلة للدفاع عن الذات الفردية والجماعية.

لهذا فالشاعر لم يقع في شرك الانفعال الساذج الذي يقع فيه الآخرون؛ بل قدّم رؤية فكرية تاريخية عما يجري في النظام العربي الرسمي الذي يكدّس السلاح في المخازن ليوهم شعبه بأنه سيكون حماية ودفاعاً وتحريراً للأرض... فإذا بهذا السلاح يصدأ، ولا يستعمل في الساحة التي ينبغي أن يستعمل فيها، على حين يكتفي هذا النظام ببيانات الشجب والإدانة، وعقد المؤتمرات... فقصيدة أحمد مطر ثورة قوية عاصفة على الحكام؛ ما يعني أن غضبه عليهم لا يقل عن غضبه على المحتل والغرب الداعم له... فالقصيدة في عنفوانها الممثل لحالة الشاعر الغاضبة تحطم المهادنة المصطنعة للحكام؛ وتعمد إلى التصريح والمباشرة في طلب رحيلهم؛ لأنهم المأساة الحقيقية للأمة، فلا إنجاز لديهم إلا اجترار الهزيمة والذل والخنوع لقرار الغرب... لذلك لجأ إلى صيغ الطلب إليهم بالرحيل، والكف عمّا هم فيه... ولعلّ أقسى ما تتجلى فيه السخرية من أولئك الحكام أنه كنى عنهم بصورة (القرد) وقدرته على التأثير ووازن بينها وبين صورة الفيل التي ترمز إلى العدو.. دون أن ننسى أن القرد أنموذج للمسخ العاجز الضعيف، الدنيء الذليل، ومن هنا يأتي سؤال الشاعر في ختام قصيدته: هل من الصعب على القرد إذا امتلك السلاح أن يقتل الفيل؟ هذا ما يحدثنا عنه فيقول:

هل من الصَّعبِ على أيِّ امرئٍ  
أن يلبسَ العارَ  
وأن يُصيحَ للغربِ عميلاً؟!  
أيُّ إنجازٍ لديكم؟  
هل من الصَّعبِ على القردِ  
إذا ما مَلَكَ المدْفَعُ  
أن يَقْتَلَ فيلاً؟!  
ما افتخارُ اللصِّ بالسُّلبِ  
وما مِيزَةُ من يلبُدُّ بالدربِ  
ليغتالَ القَتِيلَا؟!

\* \* \*

احملوا أَسْلِحَةَ الدُّلِّ وولُّوا  
لترَوا  
كيفَ نُحيلُ الدُّلَّ بالأحجارِ عِزًّا  
ونُذِلُ المستحيلا

فتجليات المقاومة في هذا النص تتخذ لنفسها بُنيات كاشفة لعظمة الجرح الغائر في نفس الشاعر من واقع عربي مأزوم بالحكام، ما جعله يلتجئ إلى التراث العظيم ليخلصه من مرارة ذلك الواقع... فالشاعر يتمزق ألماً وحرقة؛ ولكنه لا ينطوي على نفسه، ليتجرع مشاعر البكاء، بل سار إلى مواجهة ذلك بالكشف عما يجري من حوله.

وهو يختار كل الصور الشعرية التي تشعرك بالتنافر الصادم للشخصية الحاكمة... لذلك يستعير من الواقع تفاصيله الأشد مأساوية، ما يجعل الأدب موظفاً لبث الوعي، في الوقت الذي يحمل البناء الفني الذي

يخلق لدينا الإثارة... ومن هنا يؤكد الحقيقة التي لا يماري فيها أحد، وهي أن الشعب قد عرف طريقه إلى العزة.

هكذا كانت الحسرة تطارد النفس العربية الأبية؛ فتتزف حزناً قاتلاً من واقع عربي رسمي بائس، يقف متفجعاً مرة بعد مرة على محرقة تحدث هنا أو هناك؛ وآخرها ما جرى في غزة حين أصيب الشارع العربي بخيبة وحسرة من تخاذل الأنظمة العربية عن مناصرة شعبنا هناك، وتركته لمصيره فتتك به آلة العدوان الهمجية الصهيونية لمدة (٢٣) يوماً بدأت ظهيرة السبت (٢٧/١٢/٢٠٠٨م)؛ لقد زرعت الموت في كل مكان، بعد حصار بشع كاد يأتي على الحياة والوجود..

فطقوس الإشارات اللغوية وتحولات الصورة الشعرية في الأدب المقاوم تتحول في الذات الحاضرة لتفضح ممارسات العدو الصهيوني الوحشية بحق الأطفال والنساء، ولتكشف ما قامت به آلة العدو حين دمرت كل معنى للحياة... ومن ثم فإن أسلوب الأدباء يختلف من أديب إلى أديب؛ فحين يلجأ هذا الأديب إلى الأسلوب الواقعي لوصف ظاهرة العدوان الهمجي فإن ذاك الأديب يلجأ إلى الإيحاء والرمز...

ولعل قصيدة (عدنان عبد الرحمن أبو عطا) (كانون يشهد) ترتبط بالمشهد الحي الذي يتدفق بالمعطيات الدلالية لوصف وحشية العدو الصهيوني؛ ومنها<sup>(١)</sup>:

|                               |                             |
|-------------------------------|-----------------------------|
| فشريعة الطاعي إبادة ما يرى    | والقتل في أعراقهم بسأس      |
| حرقوا الطفولة والبراءة والنهي | والطير تحضنها هناك غراس     |
| لم تسلم الأشجار من أحقادهم    | قد مات في إحساسهم إحساس     |
| هدموا المساجد والمدارس عنوة   | حتى الكنائس لم يُقَم قُدّاس |

(١) جريدة الثقافة الأسبوعية - العدد ٣ - ٢٤/١/٢٠٠٩م.

وتناثرت أشلاء أطفال لنا والكون ينظر والعيون يبأس

فشاعرنا أصر على إظهار مجازر الطفولة والأبرياء من النساء والشيوخ وتهديم المنازل والمدارس والمساجد... حتى الطير لم تسلم من القتل الصهيوني... ما يؤكد أن شريعة الكيان الصهيوني وعقيدته هي القتل الهمجي المنظم للطفولة منذ القديم... فما إن حل الصهاينة في مكان حتى حلَّ معهم القتل والدمار والخراب<sup>(١)</sup>... هذا ما حصل في غزة فهناك (١٤٠٠) شهيد و(٥٧٠٠) جريح نصفهم من الأطفال والنساء وهناك عشرات الآلاف الذين غدوا دون مأوى. وقد صرح (جون غينغ) لوكالة (سما) الفلسطينية بأنه يشعر بالغضب في مواجهة حقيقة الدمار الذي لحق بعشرات الآلاف الذين لم يعد لهم مأوى فضلاً عن صعوبة توصيل المساعدات إلى المتضررين فغزة ألهمت ذاكرة الأدباء والشعراء والقصاصين مثلما ألهمت القدس وغيرها.

لقد بات واضحاً ومؤكداً أن الخيبة والمرارة من موقف الأنظمة العربية الرسمية أشد مرارة وحسرة من الجرائم البشعة التي ارتكبتها العدو الصهيوني، ويرتكبها بحق الأمة وأبنائها.. في الوقت الذي بات موقف المقاومة الوطنية في الأرض العربية بداية النهاية للخنوع والذل والفرع والرعب والخوف... بداية النهاية لكل عذابات الأمة... فحين كان الحكام العرب يتأرجحون بين الخيبة والهزيمة والانكسار فيراجعون مواقفهم وأفكارهم على رغبات القوة القاهرة... كانت بصيرتهم مصابة بالغشاوة، لأنها لم تر ما يفعله الشرفاء الأحرار أمثال (هوغو تشافيز) الذي أدرك أن حبة القمح لا تميتها الثلوج المتراكمة فوقها؛ ولا الصخور المتراكبة عليها..

ومن ثم فإن كرامة إباء الرجال، وروح الشجاعة العربية الأصيلة ستفوحان بعبق التاريخ العظيم الذي يتجدد على يد المقاومين الأبطال...

(١) انظر ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ١٣٣ - ١٣٦.

فإذا تلاطمت أمواج الحزن في الواقع العربي فإن ألق الفجر ينبثق من ليل العتمة... وقد عبّر عن ذلك الشاعر الموريتاني أحمد ولد عبد القادر في قصيدته بعنوان (إلى العزيز تشافيز... بعد التحية)، ومنها<sup>(١)</sup>:

شافيز هل أودعتك الدهر أندلس فصانك الدهر نفساً بعدها نفس  
سراً تخاطر من جيل إلى زمن ومن زمان إلى جيل فينغرس

\* \* \*

شافيز فعلك ماضٍ لا يعكره من المضارع موعود ومنحبس  
أراك ترنو تجاه الشرق منفرداً وفي امتيازك يرنو نحوك القدس  
سائل معي أمماً نالت حضاراتها ظهر السماء لترسي فوقها الأسس  
هل أهل غزة من أفنان روضتنا أم هم تماثيل يهوى قنصها الحرس؟!  
لا تسأل الجرح كم تجري دماه منها نهر النجيع بوادي الموت منبجس  
لا تسأل الطفل عن آلام حرقته جوعاً فما هو في الفوسفور ينطمس  
لا تسأل العرب هل صانوا كرامتهم فعزهم بجذام الذل ملتبس  
شافيز هل من عيون؟ هل من أفئدة تهدي لنا فترينا كيف نبتخس  
هبت علينا رياح الذل عاصفة واغتال أرواحنا الإظلام واليبس  
تعساً لصهيون تعساً للآلى ارتعدوا من خوف صهيون لا جافاهم التعس  
والنصر للأهل والقسام يلهمه الأشبال ما انخدعوا يوماً وما يئسوا

فمن يدقق في هذه القصيدة يدرك جوهر المقاومة لليأس والحزن، والخوف والاضطراب، والضعف والهوان والعجز، نتيجة مشاهدة الدم السائل وجثث الأطفال التي نهشت أجسادها قنابل الفوسفور الأبيض...

وإذا كان الحكام العرب قد اعتمدوا عكايز الوهم والضعف والخوف، فامتلات نفوسهم طيبة، وملاّت النفس العربية مرارة وحسرة ودمماً بريئاً

(١) جريدة البعث - العدد ١٣٦٠٠ - ٢٠٠٩/٢/٢م - دمشق.

يسيل في الدور والشوارع... فإننا ندرك أن الحزن الذي استوطن الأعماق فأرسل فيها كآبة من هول مشاهد الدم والقتل والدمار قد تجاوز تجاعيد القهر والخوف والتردد والتشردم والانقسام الذي وقع فيه العرب...

وفي صميم ذلك كان الأدب المقاوم يتحرك طارداً البكاء واليأس والخوف والمرارة والحسرة.. ولا يبالي بشرذمة الواقع العربي الرسمي لأن الكلمة المقاومة تستمد قوتها وشموخها من تضحيات الأبطال المقاومين في ساحة المعركة... ولذلك يقول نزار قباني في قصيدته (إفادة في محكمة الشعر)<sup>(١)</sup>:

|                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| الفدائي وحده يكتب الشعر    | وكل الذي كتبناه هُراء     |
| إنه الكاتب الحقيقي للعصر   | ونحن الحجاب والأجراء      |
| عندما تبدأ البنادق بالعرّف | تموت القصاصد العصماء      |
| ما لنا ما لنا- نلوم حزيران | وفي الإثم كلنا شركاء      |
| البطولات موقف مسرحي        | ووجوه الممثلين طلاء       |
| وفلسطين بينهم كمزاد        | كل شارٍ يزيد حين يشاء     |
| لو قرأنا التاريخ ما ضاعت   | وضاعت من قبلها الحمراء    |
| يا فلسطين لا تنادي عليهم   | قد تساوى الأموات والأحياء |
| يا فلسطين- لا تنادي قريشاً | فقريش ماتت بها الخيلاء    |

فالأدباء كانوا يردون على ضعف المبادرة عند الأنظمة العربية؛ وعلى ردة الفعل القاصرة بالانتفاض للكرامة العربية المتدفقة من بوابة القلب وشرابينه إلى أعماق الرؤى النضالية التي ترسيها قصائدهم...

ومن ثم ظهرت تجليات الأدب المقاوم في صور الهزيمة والانكسار بمثل ما برزت في صورة الصمود والانتصار، وفق ما سيأتي

(١) الأعمال الشعرية الكاملة - مج ٣/٤٠٢ - ٤٠٥.

## ٤ - تجليات الصمود والانتصار

ما تزال تجليات الصمود والثبات ووصف تضحيات الأبطال ومواقفهم الشجاعة، وطلب الثأر من عدو قاتل لا يرحم مدار مضامين أدب المقاومة؛ لا يماثلها إلا تجليات التغني بالانتصار... فالأبطال الذين يصمدون في ساحات الصراع كانوا المنارة التي تضيء الطريق لكل أبناء الوطن، إذ يصلّبون إرادة المقاومة في نفوسهم، واتخاذ ما يرونه مناسباً لمساندتهم؛ أي إن الصمود يضعهم على طريق التطهر من العجز والخوف والتردد... لهذا كان الأدباء يلتقطون هذه المعاني، ويحنون هاماتهم إجلالاً وتقديراً لثبات الأبطال على طريق الشهادة أو النصر... وقديماً قيل لمن ثبتت نفسه في حلبة القتال: من تحت أخمصك الحشر... لتصبح الشهادة أو الانتصار من أعظم تجليات الأدب المقاوم<sup>(١)</sup>

وما من أدب في العالم يماثل الأدب العربي في تغنيه بمواقف البطولة والصمود والثبات... وهو أدب يفيض حيوية بأسرار الوطنية والعقيدة التي تسمو بقيم الحرية والعدالة والحق بوصفه أدباً ينتشي بقيم البطولة التي مثلت للمقاومين في الميدان ملح الأرض تضحية وفداءً؛ وجسدت للمبدعين والمثقفين مواقف التوق والشوق إلى فرح الحياة الذي يهزم النفوس المريضة الصدئة، ويظهرها من القلق والحزن... وكلما امتشق الأبطال أسلحتهم للدفاع عن الأرض وقيم الحق والخير امتشق الأدباء والمثقفون كلماتهم حروفاً مضيئة تشيد بمعاني الألق الخالد إلى الحرية والسيادة والكرامة... ما يعني أن الأدب المقاوم بكل فنونه وضروبه وتجلياته تشدُّ المتلقي إلى تتسم روحه النضالية في صميم الوجود الفاعل والخير لغد يتجرد للضوء والتقدم والارتقاء...

(١) راجع ما تقدم ص ٤١ - ٤٤ و ٩٢ - ٩٣، وانظر وحدة الوجدان العربي ٢٢ - ٢٤.

ومن هنا فإننا نجد الشعراء - قبل غيرهم - يتألقون في الإشادة بصمود الأبطال وتضحياتهم، كي يفرسوا معنى المعنى للحياة الكريمة... فهم يهزمون بقصائدهم من دواخل الناس السوداوية القاتلة التي تلتهم، ويقتلعون منها المغالطات التي تدعمهم في كل اتجاه... ولا شيء أدل على ذلك كله من قول عدنان عبد الرحمن أبو عطاء في قصيدته المعنونة (كانون الشهيد) ومنها<sup>(١)</sup>:

حمي الوطيس وأضرمت أحجارنا      فشكا اللظى من هولها خناس  
حمي الوطيس وأطلقت أشباحنا      فبكل ميدان لها خلاس  
تصبو إلى حلو الشهادة والعلی      أرواحنا وتدافعت أنفاس  
يا أهل غزة إنكم بجهادكم      للعالمين وعهدكم أقداس

فصمود المقاومة في غزة - مثلاً - أذكى المشاعر والرؤى وأثار النفوس من مرابضها، وهي تستشعر ما تكبده العدو الصهيوني من خسائر فادحة خلال ثلاثة وعشرين يوماً من الثبات المعجز في ساحات الشرف؛ منذ أن بدأ العدو هجومه الوحشي ظهيرة السبت (٢٧/١٢/٢٠٠٨م).

وإذا كان الشعب العربي في غزة قد تعرض لمحرقه لا نظير لها فإن الصمود الأسطوري للمقاومين كان مثار إعجاب الأدباء الذين سطوروا أدبهم آيات لتمجيد الرجولة والشرف والإباء بلغة شاعرية تمزج بين حالة الوعي واللاوعي لتوصل صورتها السحرية المفعمة بالشجن والتأمل... لتصبح القصيدة المقاومة نشيد الجماعة بكل دلالتها الزمانية والفكرية كما نجده في قصيدة (جوزفين إلياس كوزاك) المعنونة (سنبل الحلم) ومنها<sup>(٢)</sup>:

(١) جريدة الثقافة الأسبوعية - العدد ٣ - ٢٤/١/٢٠٠٩م.

(٢) جريدة الثقافة الأسبوعية - ٢٤/١/٢٠٠٩م.



إن تَقُل: إنَّا بُعِثْنَا، لم نمت  
قد حملناها جراحاً، شعلة  
لألأت راياتنا قد نَوَّرت  
إنها ستون عاماً تزدهي  
بانتفاضات، بأطفال رمت  
حَجَرٌ من أرضنا في كَفْنَا  
قد نهدنا، قد نهضنا من رقادِ  
وصَمَدنا رغم أناف الأعادي  
بدماء الشهداء النبلاء  
بالبطولات برايات الفداء  
حَجَرًا قد صَمَّ آذان السماء  
صيحة الحق تعالت بالنداء

فذاكرة الشاعرة مليئة بصور البطولة التي تستدعي حيوية الدفق  
النضالي، وتتمظهر بلغة تشعرك بالانتماء إلى خصب العطاء وجمال  
الفداء... فمعطيات اللغة تتوافر في الذات الإبداعية في سياقها المشحون  
ببهاء الشهادة والبطولة.

فالصمود الأسطوري لأبطال المقاومة في غزة، ومن قبلها لبنان والعراق  
وغيرهما كان لسان حال الأدباء والكتاب والمثقفين... وكانوا جميعاً يعبرون  
عن عواطفهم الجياشة تجاه ما يتعرض له الناس من مأسٍ وأحزانٍ ومعاناة  
نتيجة القتل الهمجي المنظم الذي نفذته آلة الفتك الصهيونية المجرمة.

ولعل أهم ما يميز الأدب المقاوم هو ذلك الاستحضار الساطع  
والقوي لكل معاني الصمود والمواجهة، والبحث عن صلابة الحلم المرتبط  
بالأرض والهوية، بوصفهما أصل الرؤية المقاومة المتكاملة في لحظة  
الشعور بشرعية المقاومة...

ونرى أن هذه التجليات بدأت مبكراً في أدب المقاومة الفلسطيني؛ على  
الأقل منذ وجود الاستعمار البريطاني في فلسطين، واندلاع المقاومة ضده  
كما حدثنا عن ذلك بشارة الخوري، واصفاً تلبية الأبطال لنداء الواجب  
فكانوا الشهداء الذين سقوا العلاء دماً طاهراً، ومما قاله<sup>(١)</sup>:

(١) ديوان العودة ٧٧ - ٧٩ وانظر فيه ص ٦٧ و٧٢ و٧٥ و٧٦ و٨٠ و٨٤ و٨٩ و٩٣.

قل لجون بول إذا عاتبته  
 قد شفينا غلّة في صدره  
 يوم نادانا فلبينا النداء  
 ضجت الصحراء تشكو عريّها  
 مذ سقيناها العُلا من دمنّا  
 يا جهاداً صَفَّقَ المجد له  
 شرف باهت فلسطين به  
 إن جرحاً سأل من جبهتنا  
 وأنيباً باحت النجوى به  
 يا فلسطين التي كدنا لما  
 نحن يا أخت على العهد الذي  
 يثرب والقدس منذ احتلما  
 شرف للموت أن نطعمه  
 انشروا الهول وصبوا ناركم  
 قم إلى الأبطال نلمس جرحهم  
 إنما الحق الذي ماتوا له  
 سوف تدعوننا ولكن لا ترانا  
 وعطشنا فانظروا ماذا سقانا  
 وتركنا نُهيّة الدين ورانا  
 فكسونها زئيراً ودخانا  
 أيقنت أن مَعَدّاً قد نمانا  
 لبس الغار عليه الأرجوانا  
 وبناء للمعالي لا يدانى  
 لثمته بخشوع شفتانا  
 عربياً رشفته مقلتنا  
 كابدته من أسى ننسى أسانا  
 قد رضعناه من المهد كلانا  
 كعبتنا وهوى العرب هوانا  
 أنفساً جبارة تأبى الهوانا  
 كيفما شئتم فلن تلقوا جبانا  
 لمسة تسبح بالطيب يدانا  
 حقنا نمشي إليه أين كانا

لعل المرء يستمد من النص السابق ما الذي يعنيه أدب المقاومة وكيف  
 يتشكل في صميم وعي الحقيقة المطلقة للوجود؟! ... وهذا لا يعني أن الأدب  
 المقاوم يستعيد الأحداث والبطولات على شريط الذاكرة مجرد استعادة؛  
 وإنما يستجيب لانفعال العاطفة؛ لأنه يرغب في البوح عما يستشعره الأديب  
 من الطمأنينة في حضن البطولة الدافئ... فالأديب الملتزم يترعع في كنف  
 الأماكن المشحونة بحرارة عشق الانتماء الممتد إلى أجيال وأجيال على

جناحي الذاتية والموضوعية من خلال العناصر المركبة والمتجانسة تاريخياً وفنياً وثقافياً، ما يجعل أدبه معبراً عن أصالة الأمة وانتقالها من حالة السكون والموت إلى حالة الحضور الحيوي المتجدد... ولهذا فإنه سرعان ما يتخلص من أزماته المرة في حالات الانكسار والهزيمة إلى حالة التحريض والثأر... فالأدب المقاوم لا يستسلم للقدر والقبول بالأمر الواقع، وإنما يحاول استنهاض الهمم وانتشالها من حالة الشجن المر... ولذلك فحين يتصدى الأدب المقاوم لمواجهة حالة القهر والإحباط فإنه يتجلى بصورة تأجيج الغضب الشعبي كما نجده في قول نزار قباني ومنه: (منشورات فدائية على جدران إسرائيل)<sup>(١)</sup>:

تسعون مليوناً من الأعراب،

خلف الأفق غاضبون

يا ويلكم من ثأرهم

يوم من القمقم يطلعون

فلغة الأدب المقاوم تعمد إلى انزياح مباشر بين القلب والعقل؛ في إطار انقلاب انفعالي دلالي للمتحيل الموعود، وهو يتعالى عن الغربة والضياع، ويتحرك في إطار التصميم والغضب والثأر من عدو لا يتقن إلا لغة القتل والتدمير.. لذلك يقول المتوكل طه<sup>(٢)</sup>:

مهما استباحوا بأرض الله واجترحوا

لن نرفع الراية البيضاء يا رفح

ولو أعادوا لنا القتلى بمعجزة

وأعذر الشهداء الموت أو صفحوا

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة مج ٣/١٨٩.

(٢) انظر ديوان العودة ٣٣٤ - ٣٣٦.

لا لن نسامح من حُلُوا بمجزرة  
وإن أقاموا، فللذبح الذي ذبحوا  
لسوف نبقى كما الاسم الذي صعدت  
إليه أعراسنا، والمبتلى فرح  
لا لن يناموا وإن ناموا على رهب  
وخلف كل جدار عندهم شبح

فالشاعر يدهشنا منذ مطلع القصيدة بالحديث المأساوي عن مجازر العدو، دون أن يُبتلى بالزعيق؛ لأنه يعتمد على استنساء الذاكرة للمشهد الدموي ليثير كل نفس حرة للتوثب ومواجهة الصهاينة بكل الوسائل. ومن يتأمل النص يدرك مدى الحقد الذي ملأ صدر الشاعر على العدو الصهيوني الذي فقد كل حس أخلاقي أو إنساني حين راح يرتكب مجازره بحق الأطفال والنساء... فحقده على عدوه يتجلى واضحاً في عبارة ( لا لن نسامح.. ) ما يقوي فكرة تصليب موقف الشعب المقاوم، ويثبت في ذاكرة تلك المجازر التي لا يجوز له أن ينساها...

. وهذا ما عبّر عنه الشاعر المغربي (حسن الأمراني) في قصيدته (اغضب)، إذ ركز على بث الثورة الغاضبة على العدو الصهيوني؛ ومنها<sup>(١)</sup>:

اغضب!! وكن حمماً ونيراناً

لا عذر إن لم تغضب الآن

اغضب وإلا فلتكن حجراً

كن كما تشاء فلست إنساناً

إن أنت لم تغضب

---

(١) انظر ديوان العودة ٤٦٣ - ٤٧٤ ومجلة صابرون - عدد تشرين أول وثنان - ٢٠٠٨م - دمشق.

ولم تشرب دمًا بدم  
ولم تركب طريق أحبةً سبقوك للفرسوس إسراراً وإعلاناً  
اغضب وكن لهباً على الأعداء ... بركانا  
اغضب فإن الأرض غاضبة وكفاك آلاماً وأحزاناً  
اغضب ...

وهل شرف أعز اليوم من غضب؟!  
لا صلح حتى تخطَّ الخيل الجريحة بالقنا  
ولو افح القضب  
لا، ليس ما تتبصر العينان ماء  
كي تراوده شفاه بنيك من ظمأ  
وليس شعاع زرع أو رغيف  
كي يرد النفس من زغب  
لكنه أشلاء موتانا

فالشاعر الأمراني لم يستسلم ولم ييأس، وأكسبته المآسي صلابة وقوة  
كالمقاومين الذين اكتشفوا أن هزيمة العدو ممكنة مهما امتلك من أدوات  
الفتك والغطرسة والقوة... فالنصر صبر ساعة، ومن يثبت في الميدان لا بد  
أن ينتصر، ولا بد للشرفاء أن يدعموه. ولو تأملنا بنية القصيدة لرأيناها  
تترابط موضوعياً في نسق معماري غاضب ومحمول على جناح الخيال  
والعاطفة، ما جعل الصورة الاستعارية الأخاذة تفسح للمتلقى عملية القراءة  
المنفتوحة على مفارقات شتى. وهي مفارقات تجرنا إلى بث الحماسة والقوة  
في النفس الأبية لتحرير الأرض، وإعادة الكرامة إلى أصحابها.

.. ولهذا آمن الشعراء المقاومون بأنه لا صلح ولا سلام مع الكيان  
الصهيوني المغتصب، ولا بد من التشبث بالأرض، وعودة كل من هجر منها

إليها ولا بد لكل عربي أن يمتلئ قلبه غيظاً على مجازر الكيان الصهيوني، وهو غيظ يكسب القصيدة عاطفة متأججة كتأجج اللوعة التي تركها العدو في النفس العربية. ولعل قصيدة الشاعر المصري أمل دنقل من أشهر القصائد المقاومة للاستسلام، وإغراءات المصالحة الموهومة مع العدو الصهيوني . وهي تبرز مهارة الشاعر الحاذق الذي ارتفع بالفن المقاوم عن إرساء الحسرة والأسى إلى تعميق روح التحدي والتوثب لعصر قادم... ما يجعلها وريثة لكل الموثبات العربية منذ وجدت في العصر الجاهلي. فهي تقع في صميم الحضور الفاعل المبني على استجابة فطرية لمواجهة المأساة العظيمة التي سيطرت على كل عربي...

ومن ثم تميزت القصيدة بدرامية واقعية تاريخية ذات أبعاد نفسية كبرى، وهي تتغلغل في الذات بكل يسر وسهولة؛ لأنها تتوهج بعذوبة المفردات الواضحة والدقيقة وتستنز المتلقي بأسلوب النهي الصريح، الذي صار لازمة فنية فكرية (لا تصالح)، وهي لازمة تتناول الفرح والحزن؛ والتفاؤل والتشاؤم علماً أنه كان حريصاً على إبراز صورة الإيقاظ والنهوض الثوري والاجتماعي في وجه الجلادين أينما كانت مواقعهم. لهذا استخدم الرمز التاريخي الأسطوري لحكاية مقتل كليب وسعي المهلهل للثأر له. وحينما لجأ إلى هذا الرمز لم يعتمد على المبالغات الفجّة... وإنما كان يوغل في الحديث عن الرفض لكل أشكال الاستسلام والإذلال الذي يُمارسُ على الأرض والمجتمع العربي؛ ما يشي بأن القصيدة الرؤيوية ترتقي بمفهوم الثأر إلى مرتبة القداسة.

ولا بأس للباحث أن يشير إلى تماسك القصيدة في وحدة موضوعية تتميز بالجدة والابتكار ولا سيما حين نجحت في توظيف الأسطورة لتلك الرؤية الفكرية، وهو توظيف يوحى بالتجليات المدهشة عاطفياً ونضالياً.. ومنها<sup>(١)</sup>:

---

(١) المقاومة - منتخبات شعرية - ١٦١ - ١٧٢ وانظر ديوان العودة ٢٥٢ - ٢٦٣.

لا تصالح

ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقاً عينيك

ثم أثبت جوهرتين مكانهما

هل ترى؟!!

\* \* \*

لا تصالح على الدم حتى بدم!!

لا تصالح!! ولو قيل رأس برأسٍ

أكلُ الرؤوس سواء؟!!

أقلب الغريب كقلب أخيك؟!!

أعيناه عينا أخيك

وهل تتساوى يد.. سيفها كان لك

بيدٍ سيفها أثكلك؟!!

سيقولون:

جئناك كي نحقن الدم

جئناك!! كُن - يا أمير - الحكم

سيقولون:

ها نحن أبناء عم

قل لهم: إنهم لم يراعوا العمومة فيمن

هلك

واغرس السيف في جبهة الصحراء

إلى أن يجيب العدم

إنني كنت لك  
فارساً  
وأخاً  
وأباً  
وملك!!  
لا تصالح  
ولو توجوك بتاج الإمارة  
كيف تخطو على جثة ابن أبيك؟!  
وكيف تصير المليك  
على أوجه البهجة المستعارة  
كيف تنظر في يد من صافحوك  
فلا تبصر الدم  
في كل كف؟!  
إن سهماً أتاني من الخلف  
سوف يجيئك من ألف خلف  
فأدم - الآن - صار وساماً وشاره

وحيثما شكل الأدب المقاوم الرؤية النضالية الثائرة على العجز والضعف، وطالب بالثأر من العدو... فإن إيقاع الوعي بالمشهد المأساوي - مهما أثار من لواعج محطمة - كان يشكل إرادة الصمود، والاستبشار بالنصر المؤكد<sup>(١)</sup>... فالأدب المقاوم نتاج فطري جمعي؛ وإن كان إبداعاً فردياً، وهو يخترق في تجلياته ووظائفه كل ما يمكن تخيُّله من الحلم المنشود؛ مازجاً

---

(١) انظر وحدة الوجدان العربي - ١٩ - ٢٢.



بين البعدين الوطني والقومي؛ ليؤكد رغبته الملحة في التحرر من الاستعمار بكل أشكاله. وهذا ما يستشفه المرء من قول نزار قباني في (منشورات فدائية)، ومنه<sup>(١)</sup>:

موعدنا حين يجيء المغيب

موعدنا القادم في تل أبيب

نَصْر من الله، وفتح قريب

فصورة البشرى بالنصر وتحرير فلسطين المحتلة تستمد أسرارها من التصميم الرائع على الحرية المعانقة للارتباط بالكرامة والسيادة؛ ما يعني أن الأدب المقاوم يتجاوز حالة النسيان، واليأس والظلم والقهر، والموت، لأنه يثبت القيمة المطلقة لحرية الإنسان وكرامته؛ ويدفعه إلى موقف نضالي يغير الواقع المأساوي الظالم. ولهذا فإن فصول المحرقة للشعب الفلسطيني يجب أن تنتهي. لأنها لن تدوم مهما طال ليل الاحتلال الصهيوني لفلسطين... ولا بد لكل لاجئ من العودة، وهو أمل مزروع في نفس كل فلسطيني ابتعد عن دياره كما عبر عنه حسن البجيرى في قصيدته (سأرجع)<sup>(٢)</sup>:

فلسطين يا سر دنيا وجودي      ويا بسمة النور في مأملي  
لئن حال دونك قهر الحديد      ودون رجوعي إلى منزلي  
فإني ولو عبّر قصف الرعود      سأرجع يوماً إلى كرملي

فالبشرى بالانتصار يعني الاستبشار بعودة اللاجئين من ديار المنافي لمواصلة عملية الصيرورة الوجودية الحرة... وبناء عليه تختصر مسافات

(١) الأعمال الشعرية الكاملة مج ٣/١٨٣.

(٢) المقاومة - منتخبات شعرية - ١٤٧ وديوان العودة ٤٣٣ وانظر ثقافة المقاومة في الآداب والفنون ١٤٠ - ١٤٢.

القهر والاعتراب الزماني والمكاني بالنصر الذي يعيد الحق إلى أهله...  
لتزرع الحقول بالقمح والارتقاء لتحقيق إنسانية الإنسان... وقد أكد الشاعر  
الفلسطيني صبحي ياسين هذا النمط من تجليات الأمل بالنصر على ذلك  
العدو الذي أتى إلى فلسطين من كل حذب وصوب ليحتل أرضاً ليست له...  
ولذا لا بد للشعب الفلسطيني أن يناضل نضالاً عنيداً ليفرح بمعاينة أرضه،  
ومن ثم سيعود شذاذ الآفاق إلى حيث جاؤوا. وبهذا يثبت الشاعر خصوبة  
المقاومة، وتجدد الحياة؛ وعودتها إلى طبيعتها، ومما قاله:<sup>(١)</sup>

شموع الأرض يا جلاد لا تركع  
وإن تفلحاً عيون الطفل أو تفلح  
فمن جرحي شمس الأرض يا جلادنا تسطع  
ومن ألي ورود الأرض يا سيافنا تطلع  
فإن تحرق وإن تشنق  
وإن تفلح وإن تقطع  
فلن نركع

\* \* \*

لأنك قادم من كوكب آخر  
لأنك قصة من عالم آخر  
سترحل عندما تكبر  
سترحل عندما تزهر  
سترحل عندما نثمر  
سترحل دون أن نركع

---

(١) ديوان العودة ٤٦٠ - ٤٦٢.

هكذا تبين لنا أن المقاومة بكل تجلياتها الفطرية الطبيعية؛ وآلياتها الواعية كامنة حيث الظلم والقهر والاستبداد والظغيان والاعتداء والعنف والغزو والاحتلال... وقد استطاع الأدب العربي - قديماً وحديثاً - استشراف تجليات المقاومة، والتعبير عنها بنبض الحيوية الفاعلة للكلمة الأدبية المثيرة؛ استطاع أن يمجّد الحرية والكرامة؛ ويثور على ركام التخلف والقهر والظلم والاحتلال... فكان يلتمس صوت الجماعة الوطنية والقومية التي تأبى الذل والخنوع والاستسلام،... وهو الصوت الذي غنّى للقيم الخلقية والإنسانية... وإن امتلأ حزناً وأسى، كان صوتاً عالياً غاضباً وحاقداً على الفاسدين المفسدين، والقتلة المارقين، والعابثين الضائعين... وقد ظل متمسكاً بالأمل والبشرى ببزوغ فجر الحرية والعودة إلى الديار إذا ابتعد عنها...





## الخاتمة

تبين لنا أن الأدب المقاوم في ملامحه الكبرى كان يتغذى من لهيب الثورة الغاضبة التي تأججت على نار حب الوطن والانتماء الأصيل إلى الأرض فشرع يدافع عنهما، ويجابه كل معتدٍ غاصب بالكلمة الحرة الصادقة وبالموقف النضالي الصامد... وكان الأدب المقاوم رسالة الأدباء والكتاب والمثقفين الملتزمة بالحرية والقيم النبيلة التي نضجت بالوعي والمعرفة المميزة للخير من الشر؛ والفرح من الحزن، والأمل من اليأس والقنوط... فكانت الشهادة طريق النصر والعزة والكرامة... ومن ثم كانت (الأننا) الأدبية معادلة للذات الجماعية وطنياً وقومياً، ولا سيما حين أحالت المكان (الوطن - الأمة) إلى قضية تستحق الدفاع عن وجودها، بوصفها كينونة إنسانية حرة... وحين صارت قضية فلسطين قضية عربية فإنها غدت توأماً للحق والمحبة والسلام، وصارت المعادل الموضوعي لحالة الانبعاث على طريق الشهادة أو النصر.. ومن ثم فإن الرسالة الكبرى التي حملها الأدب المقاوم في أعظم ملامحها كانت تتجسد بالتبشير بالخلاص من ليل القهر والظلم والاحتلال ليبزغ ميلاد فجر المستقبل المنشود...

والله من وراء القصد



## المصادر والمراجع

- ١- أدب المقاومة - غالي شكري - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٠.
- ٢- الأسئلة المتعلقة - عمران عز الدين أحمد - ملحق الثورة الثقافي - العدد ٦٢٨ - دمشق - ١٣ / ١ / ٢٠٠٩ م.
- ٣- الأعمال الشعرية الكاملة - نزار قباني - منشورات دار نزار قباني - بيروت - ٢٠٠٢ م.
- ٤- ثقافة المقاومة في الآداب والفنون - جامعة فيلادلفيا - عمان الأردن - ٢٠٠٦ م.
- ٥- الخالدون - أحمد سعيد هوّاش - مجلة الثقافة - دمشق - تشرين الثاني/ نوفمبر - ٢٠٠٧ م.
- ٦- ديوان الأعشى الكبير - قدّم له وشرحه د. محمد أحمد قاسم - المكتب الإسلامي - دمشق - ط ١ - ١٩٩٤ م.
- ٧- ديوان حافظ إبراهيم - دار العودة - بيروت.
- ٨- ديوان خير الدين الزركلي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٠ م.
- ٩- ديوان عمر أبي ربيعة - شرح عبد الأمير. أ. مهنا - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٦ م.
- ١٠- ديوان العودة - إعداد وتحريّر سمير محمود عطية - إصدار تجمّع العودة الفلسطيني (واجب) - دمشق - سورية - ط ١ - ٢٠٠٨ م.
- ١١- ديوان لقيط بن يعمر - حققه وقدّم له د. عبد المعيد خان - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٧ م.
- ١٢- ديوان محمود درويش - دار الحرية للطباعة والنشر - بغداد - ط ٢ - ٢٠٠٠ م.
- ١٣- رواية المقاومة - د. عبد الله أبو هيف - مجلة الكاتب العربي - العدد ٧٥ - الاتحاد العام للأدباء والكاتب العرب - دمشق - ٢٠٠٧ م.
- ١٤- سليمان العيسى في نبرته الهادئة - د. ملكة أبيض - مجلة الثقافة - دمشق - تشرين الثاني/ نوفمبر - ٢٠٠٧ م.

- ١٥- شعر الانتفاضة في البعدين الفكري والفني - فائز العراقي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ١٩٩٨م.
- ١٦- الصوت والصدى - هارون هاشم رشيد - وزارة الثقافة - دمشق - سورية - ٢٠٠٩م.
- ١٧- الصورة الأدبية - د. مصطفى ناصف - دار الأندلس - بيروت - ط٣ - ١٩٨٣م.
- ١٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق - حققه محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت - ط٤ - ١٩٧٢م.
- ١٩- العيسى ورحلة الظمأ - عبد اللطيف الأرنؤوط - مجلة الثقافة - دمشق - تشرين الثاني/نوفمبر - ٢٠٠٧م.
- ٢٠- القضية الفلسطينية في الشعر العربي المعاصر - مصطفى بلمشري - مجلة الموقف الأدبي - العدد ١٢٦ - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ت١ - ١٩٨١م.
- ٢١- لسان العرب - لابن منظور - دار صادر - بيروت.
- ٢٢- مختارات من الشعر السوفييتي - ترجمة عبد الرحمن الخميسي وآخرين - دار رادونما - موسكو - ١٩٨٥م.
- ٢٣- مشروع القومية العربية إلى أين - د. حسين جمعة - دار الفرقد - دمشق - ٢٠٠٦م.
- ٢٤- المقاومة: قراءة في التاريخ والواقع والآفاق - د. حسين جمعة - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٧م.
- ٢٥- المقاومة منتخبات شعرية - تقديم د. حسين جمعة - واختيار حسن حميد - سلسلة الكتاب الشعري رقم ٢ - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - تشرين الثاني - ٢٠٠٦م.
- ٢٦- وحدة الوجدان العربي (الشاعر والأرض) - د. حسين جمعة - مجلة الكاتب العربي - العدد ٧٥ - الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٧م.



## الدوريات:

- ١ - جريدة الأسبوع الأدبي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٧ / ٢ / ٢٠٠٩ م.
- ٢ - جريدة البعث - دمشق.
- ٣ - مجلة تايكي - (مجلة شهرية تعنى بالإبداع النسوي) - العدد ٣٥ - عمان - الأردن - ٢٠٠٨ م.
- ٤ - جريدة تشرين - دمشق.
- ٥ - جريدة الثقافة - لصاحبها مدحة عكاش - العدد ٣ - دمشق - ٢٤ / ١ / ٢٠٠٩ م.
- ٦ - جريدة الثورة - دمشق.
- ٧ - مجلة الثقافة - لصاحبها مدحة عكاش - العدد الخاص بالقصة القصيرة جداً - ك ١ - ٢٠٠٨ م.
- ٨ - مجلة الرأي - العدد ٣١ - دمشق - ١٦ / ٢ / ٢٠٠٩ م.
- ٩ - مجلة صابرون - عدد تشرين أول وثنان - دمشق - ٢٠٠٨ م.
- ١٠ - مجلة فتح الصادرة عن حركة التحرير الفلسطيني - العدد ٥٧١ - - في ١ / ٣ / ٢٠٠٧ م والعدد ٥٨٥ - دمشق - أيار ٢٠٠٨ م.



## المحتوى

### الصفحة

الإهداء ..... ٥

مقدمة ..... ٧

### الفصل الأول: مواجهة الأدباء للأزمات والنكبات

- حدود وأبعاد: ..... ١٥

١- مفاهيم: النكبة والنكسة والأزمة ..... ١٧

٢- أنواع الأزمات والنكبات ..... ٢٠

أ - الداخلية - سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً و...

ب - الخارجية - الاحتلال المباشر وغير المباشر

٣- طبيعة المواجهة ووظيفتها ..... ٣٤

١- طبيعة المواجهة: ..... ٣٤

أ - المواجهة بالكلمة:

١ - المواجهة بالوصف والتنديد.

٢ - المواجهة بالتحليل والنقد.

ب - المواجهة بالكلمة والنفس: شعراء المقاومة - عبد الرحيم محمود - كمال

ناصر - غسان كنفاني

٢- وظيفة المواجهة: ..... ٤٤

وطنية - قومية - إنسانية - خلقية - دينية

٤- غزة أنموذجاً: ..... ٥٢

١ - الحصار

٢ - الخيبة والمرارة (داخلياً وعربياً ودولياً)

٣ - ضعف المواجهة والمعالجة

٤ - دور الأدباء في مواجهة الأزمات الحربية

أ - الدمار والمجازر

ب - التضحيات والشهداء

ج - الموقف من الأنظمة العربية والرسمية

د - وصف الأمل بالنصر

هـ - موقف أدباء العالم

## الفصل الثاني: تجليات الأدب المقاوم

توطئة ..... ٧٣

١ - تجليات الانتماء ..... ٧٥

- الانتماء إلى الهوية: ..... ٧٥

- الانتماء إلى الأرض (الوطن - الأمة): ..... ٨٣

٢ - تجليات وحدة الموقف والمصير ..... ١٠٢

٣ - تجليات مقاومة الهزيمة والانكسار ..... ١٠٧

- الخيبة والمرارة (ذل - ارتكاس - بكاء - عويل...)

- صور الدمار والخراب

- التخاذل والخوف والجبن

- التشرذم والانقسام

- ضعف الإعداد والأدوات

## الصفحة

---

|     |   |
|-----|---|
| ١١٩ | ٤ - تجليات الصوم والانتصار .....              |
|     | - تمجيد البطولة والأبطال (الجهاد تطهير للنفس) |
|     | - الصوم والثأر                                |
|     | - التبشير بالنصر                              |
| ١٣١ | الخاتمة .....                                 |
| ١٣٥ | المصادر والمراجع .....                        |



## المؤلف

### أ. د حسين علي جمعة

- دكتوراه في الأدب العربي - جامعة دمشق .
- أستاذ الأدب القديم والدراسات العليا بجامعة دمشق .
- أستاذ الأدب القديم والنقد بجامعة قطر ١٩٩٢ - ١٩٩٧ م .
- رئيس تحرير مجلة جامعة دمشق للآداب .
- رئيس فرع دمشق ٢٠٠٥ .
- مقرر جمعية البحوث والدراسات باتحاد الكتاب العرب .
- رئيس اتحاد الكتاب العرب .
- عضو مجلس إدارة الهيئة السورية العامة للكتاب .
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية محلياً وعربياً ودولياً .

### من مؤلفاته المنشورة :

- ١ - الحيوان في الشعر الجاهلي - دار دانية - دمشق - ١٩٨٩ .
- ٢ - مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية - دار دانية - دمشق ١٩٩٠ .
- ٣ - الملل والنحل للشهرستاني - عرض وتعريف - دار دانية - دمشق ١٩٩٠ .
- ٤ - الرثاء في الجاهلية والإسلام - دار معدّ - دمشق - ١٩٩١ .
- ٥ - مختارات من الأدب في صدر الإسلام - بالاشتراك - جامعة دمشق - ١٩٩٢ .
- ٦ - قراءات في أدب العصر الأموي - جامعة دمشق - ١٩٩٣ .
- ٧ - قصيدة الرثاء - جذور وأطوار - دار النمير ومعد - دمشق - ١٩٩٨ .
- ٨ - في جمالية الكلمة - دراسة بلاغية نقدية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٢ .

- ٩ - ابن المقفع بين حضارتين - المستشارية الإيرانية بدمشق - ٢٠٠٣.
- ١٠ - إبداع ونقد - قراءة جديدة للإبداع في العصر العباسي - دار النمير - دمشق - ٢٠٠٣.
- ١١ - المسبار في النقد الأدبي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٣.
- ١٢ - نصوص من الأدب العربي المعاصر - بالاشتراك - جامعة دمشق - ٢٠٠٥.
- ١٣ - جمالية الخبر والإنشاء - دراسة جمالية أسلوبية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٥.
- ١٤ - التقابل الجمالي في النص القرآني - دار النمير - دمشق - ط١ - ٢٠٠٥.
- ١٥ - مرآيا للالتقاء والارتقاء بين الأدبين العربي والفارسي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٦.
- ١٦ - مشروع القومية العربية - دار الفرقد - دمشق - ٢٠٠٧.
- ١٧ - المقاومة قراءة في التاريخ والواقع والآفاق - دراسة - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠٠٧.
- ١٨ - اللغة العربية ، إرث وارتقاء حياة - دراسة - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ٢٠٠٨ م.
- ١٩ - قضايا في الفكر السياسي والقومي - دمشق - دار الشرق - ٢٠٠٩.

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة